الزهر والحب

obeikan.com

obeikan.com

الزهر والحب

تعددت الأزهار والنباتات دور الزينة والبهجة ، والاحتفال بأنوارها الصافية، وشذاها الفواح ، في فصل الربيع إلى السياسة، فقد أُتخذت بعض الزهور والنباتات شارات لدول ، مثل اللوتس لمصر الفراعين ، والريحان لألمانيا في زمن غليوم الكبير، والأرز للبنان، وبلغ القرنفل حدًا من الإعجاب به، فاتخذه بولانجه «أحد الرؤساء الأوربيين» شعارًا له ، وفضلته الملكة ماري أنطوانيت على غيره من الأزهار، وكانت تخفيه في طيات ثيابها ، وهي سجينة، وجعل أحد ملوك العصور الوسطى حاشيته تمضغ القرنفل قبل التحدث إليه لتفوح رائحته العطرية من أفواههم.

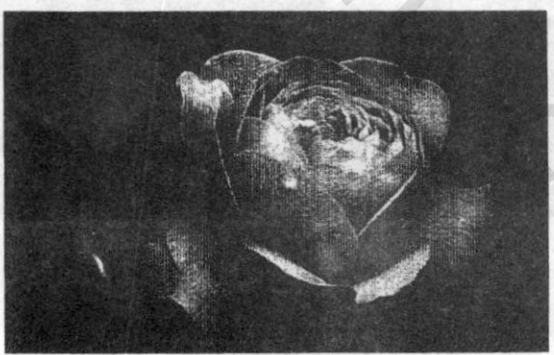

الورد البلدي

وقيل: إن الخليفة المتوكل «قصر الورد على نفسه، وحرّمه على غيره، وأنه كان يقول: أنا ملك السلاطين، والورد ملك الرياحين، وكل منا أولى بصاحبه، فكان الورد في زمانه لا يُرى إلا في مجلسه فقط، وكان يقول: إنه لا يصلح للعامة، وكان يلبس في أيام الورد الثياب المورّدة، ويفرش الفُرش الموردة»[1].

وكان كسرى أنو شروان مغرمًا بالنرجس، ويقول: «هو ياقوت أصفر، في در أبيض، على زبرجد أخضر، وإني لأستحي أن أباضع في مجلس فيه نرجس؛ لأنه أشبه بالعيون الشواخص»[2].

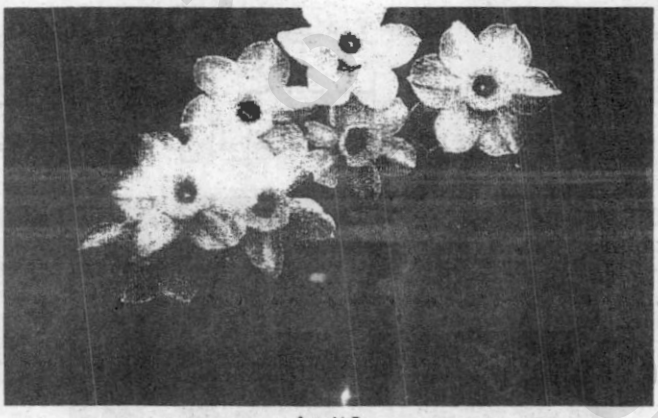

زهرة البنفسج

(١) محمد بن إسماعيل شهاب الدين: «سفينة الملك، ونفيسة الفلك»

(٢) المصدر السابق.

ولم يكن زهر الزنبق أقل مكانة ، فقد صار رمزًا مقدسًا للسيدة «مريم العذراء» عليها السلام ، ويطلق عليه أحيانًا زنبق القديس يوسف، وقد حبذه الملك شارل العاشر ملك فرنسا على سائر الأزهار، وكانت البنفسج زهرة وطنية في أثينا القديمة، وكذلك كانت زهرة الإمبراطور نابليون الأول المفضلة أيام نفيه في جزيرة «إلبا» ، وانتقلت معه بعد هروبه إلى فرنسا.

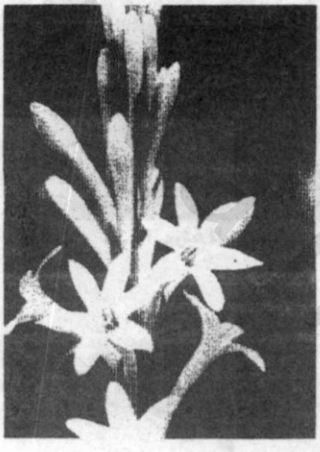

زهر الزنبق

وما زالت حرب الوردتين تعرف في تاريخ إنجلترا أثناء الحرب الأهلية عندما تنازعت على العرش عائلة يورك، وشعارها الوردة البيضاء وعائلة لانكساتر وشارتها الوردة الحمراء.

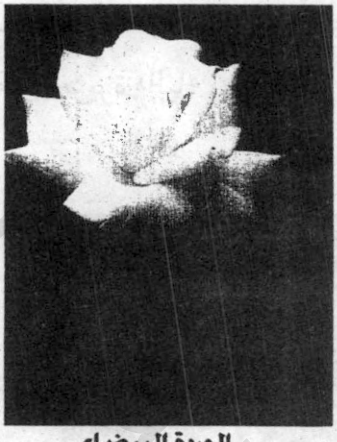

الوردة البيضاء

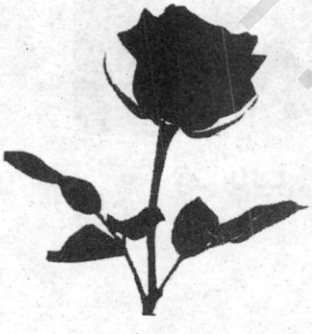

الوردة الحمراء

كذلك لعب الزهر دورًا كبيرًا في حياة العشاق، وحمل خطراتهم وأسرارهم، ونقل أخبارهم وأفكارهم، واتخذوه سيما فيما بينهم، وعبروا به عن الافزاع والارتياح في تجاربهم.

والسيم من السُّومة بالضم أي العلامة ، ويقال أيضًا السّيمة، وفي القرآن الكريم ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ ، وفي الحديث الشريف قال ﷺ : «سوّموا، فإن الملائكة قد سوّمت» ، أي اعملوا لكم علامة يعرف بها بعضكم بعضا»[1].

وقد كانت الأزهار من بين سيم المغرمين، أو علاماتهم التي يتعارفون بواسطتها، ويرى كل عاشق معشوقه راضيًا أو جافيا فيها.

اقترن الحب منذ عصور قديمة بلوحات الطبيعة الجميلة، وصارت الأنثى الشهية في عرف العشاق كالروضة الزاهية، أو كالزهرة الغضة اليانعة التي حان موعد قطافها، فيأوي إليها وملء قلبه الرجاء.

وكم شبه الشعراء التقبيل بجني الثمار، والخدود بالورود، وتثني القدود بتمايل الغصون، والثغر بالأقاح، ورفيف الشَّعر

(١) مادة سوم – لسان العرب.

برفيف أوراق الزهر، والنهود بالرمان، والعيون بالنرجس، وعمر السعادة في العشق بقصر حياة الورد ، والأعطاف بغصن البان الميّاد إلى آخر ما يعرفه قراء الغزل من شعر المغرمين، فلا جرم أن اقترنت المرأة بالزهور والنور، والرقة والجمال.

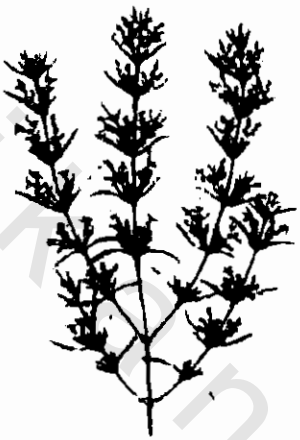

غصن البان

وقد ذكر المعنيون بالحديث عن العشاق حكايات كثيرة عن العشق، وعن دور الزهور في هذا المجال، وتوسعوا حتى أخبرونا بأن النبات يعشق أيضًا، وهذا من الغرائب والعجائب، فقد روى ابن الجوزي بإسناد أن أبا مَسْلمة المنقرى يقول: «كان عندنا بالبصرة نخلة، وذكر من حسنها وطيب رطبها، قال:

ففسدت حتى شيصت[1]، قال: فدعا صاحبها شيخًا قديمًا يعرف النخل، فنظر إليها وإلى ما حولها من النخل، فقال: هذه عاشقة لهذا الفحل بالقرب منها، فلقحت منه، فعادت إلى ما أحسن ما كانت»[2].

وقد روى داود الأنطاكي هذه الحكاية على نحو آخر قال: «إن شخصًا كان له نخلٌ، وكانت واحدة منهن تزهر وتُسقط قبل الانعقاد، وربما تُثْمر وتُسقط قبل البلوغ، فشكا ذلك إلى حاذق، فجاء حتى إذا نظرها، فقال: إنها عاشقة، ثم دعا برصاص، فصنع شريطًا، وربطه منها إلى نخلة أخرى هناك، فحسن ثمرها في تلك السنة، ودامت كذلك، وإن صاحب البستان قطع الشريط لينظر فأسقطت الزهر، فأعاده فصلحُتْ»[3].

أراد الراوي القول: إن الوصل يريحها، والارتباط يقويها على إنضاج الثمر، والبعد يضنيها، فتسقط ثمارها قبل الأوان، أو أن التمر الناضج ثمرة تواصل المعشوق مع العاشق، والحبل

(١) أثمرت ثمرًا رديئًا.

(٢) ابن الجوزي - «ذم الهوى» - دار الجيل - بيروت ط ١٩٩٩ ص ٣١٢.

(٣) داود الأنطاكي: «تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق».

الواصل بينهما يعمل على الضم والتلاقح، وهي حكاية غريبة؛ لأنه كيف تأتّى لحاذق النخل أن يدرك دخائل النخلة العاشقة وأسرارها الخافية، وسواء اعتقد العشاق في العشق النباتي، أو لم يعتقدوا فإنهم اتخذوا من الزهر والنبات لحنا لهم.

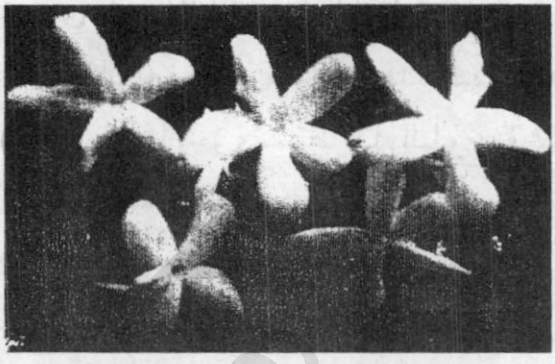

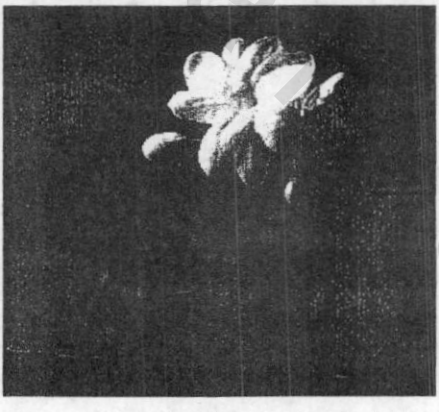

الياسمين

رسول العاشقين:

والحب يبعث في الإنسان حياة جديدة، ويولد فيه طاقة زائدة عاتية مسيطرة على النفس، ولا يستطيع المحبان إخماد عواطفهما، وإنه لابد من المشاهدة والمحادثة والتلاقي لبث الشوق، وهذا غير ميسور ؛ لأن الحب بطبيعته خجول، وصوته خافت، حتى لو كانت مبادؤه سامية، وغاياته نبيلة ، ومن هنا تعترض اللقاءات صعوبات جمة، منها: أن المرأة العربية في المدن والقرى محدودة الحركة ؛ لذلك قد يلجأ العاشق إلى الاتصال بمعشوقته عبر وسيط، يحمّله رسالة مخطوطة أو شفوية، وقد ظلت هذه الطريقة متبعة زمنا طويلا، وقد يكون الرسول رجلا أو امرأة، ومع أن الرسول يتم اختياره بعناية، ويتمتع بصفات حسنة أهمها الكتمان، فإن هذه الطريقة غير مطمئنة ؛ لأنه قد تنتج عنها مخاطر مروّعة ، منها: أن يكون العاشقان أو أحدهما يجهل القراءة والكتابة، وفي هذه الحالة يتحتم أن تكون الرسالة شفوية، وهذا يعني أن الرسول يعلم كل ما بين العاشقين.

ومنها: أن الرسائل المخطوطة قد تقع في يد غريم يبوح بالسر، هذا إلى جانب أن حامل الرسالة المخطوطة قد يطلع عليها، ويذيع ما تنطوي عليه من أسرار، وربما صار خصمًا حاقدًا، فيفشي كل ما يعرفه، علاوة على أن الرسول المزود

برسالة شفوية ربما لا يعرف كيف يشرح الحالة النفسية للعاشق، وقد شكا أحد المحبين من رسوله لعدم قدرته على ترجمة أشواقه لمعشوقته وقال:

إن شكونا الهوى فماذا نقول
أو تلفنا شوقا فماذا السبيل[1]
أو بعثنا رسلا تترجم عنا
ما يؤدى شكوى المحب رسول

أما أخطر ما في هذه الطريقة هو أن يعشق الوسيط «الرجل» معشوقة العاشق من كثرة تردده عليها، أو أن تحب الوسيطة «المرأة» عاشق المعشوقة، من كثرة ترددها عليه، وهنا يحل بالعاشق الأصلي الشقاء المقيم، واليأس القاتل، ويخجل من نفسه لهزيمته ، وقد قال ابن سناء الملك:

راح رسولا فجاءني عاشقا
وعاقه عن رسالتي عائق
وعاد لا بالجواب بل بجوى
أخرسه والهوى به ناطق

(١) هناك رواية أخرى لهذا البيت هي:
أن شكونا بعدا فماذا نقولُ أو بلغنا شوقا فأين السبيل

وقال الأرجاني:

قسما لقد رجع النسيم عليلا
لما سرى مني إليك رسولا
ودَرَى بحبّك أنه قد خانني
فغدا يُجرُّ من الحياء ذيولا

وهذا الذي يحدثنا به الشاعر، هو أشد ما يبتلى به العاشق، إذ فقد المحبوب، وشاع سره المصون، ومضت أيام البشاشة الحسان، مما ولّد فيه النقمة، وجعله متبرما سيئ الظنون، شاعرًا بالوحشة والانكسار.

وبالرغم من أن طريقة التراسل مشوبة بعيوب وأهوال، فإنها ظلت قائمة زمنًا، وفي قصص القصاص في العصر الحديث نجد رسائل بين محب ومحبوب، وأحيانا تكون القصة كلها عبارة عن رسائل متبادلة، أو أن تكون كلها رسالة واحدة.

ولما وجد العشّاق أنهم باتباع طريقة التراسل يكونون على شفير هاوية، مهما أحكموا التدبير فيها ، لم يأنس كثير منهم إليها، واتخذوا وسائل أخرى أكثر أمنا، أو قللوا منها ، وحتى مع وجود البريد الحديث ، قد لا تصل الرسالة إلى المرسل إليه وتقع في يد آخر، وإذا وصلت فلا تصل في نفس اليوم ، أما

ساعي البريد المتعلم الأنيق قد يعشق المعشوقة من كثرة ذهابه إليها ، وإيابه من عندها، وللأقدار أحكام ، أو قد يفتح الرسالة ويطلع على مكنونها ، ثم يعيدها إلى المظروف مع حسن الصنعة.

لغة الزهور:

وقد اتخذ العشاق رسائل أخرى للتواصل مع أحبائهم ، منها الرسائل الغامضة الرمزية التي يخفى معناها على حاملها، ويعسر عليه إزاحة الستر عن مضمونها، وبذلك يمكن للعاشق أن يتقي المزالق. وهذه الرسائل هي الزهور التي عبروا بها عن التفكير والشعور ، وتضمنت هبات الحب، ونطقت بمعانيه، وتتأرجح علاقات المحبين، بين إصعاد وهبوط، بواسطتها، فترتعش عواطفهم طربا وشجنا وهم ممسكون بها، إذ لم تعد الزهرة تعرف باسمها ، وإنما بما تنطوي عليه من دلالة، وإذا كانت الوردة في الطبيعة منظرًا جميلًا ، فإنها في السيم حسب ما تعبر عنه من مشاعر ذاتية.

ولحن الزهور يتردد كثيرًا على ألسنتنا في حياتنا العادية دون أن ندري أن ما نقوله سيما ورمزًا، فيقول أحدنا للآخر عند

الشك ، وعدم الثقة : «في المشمس» ، ويرفع بعضنا غصن الزيتون رمز السلام ، وتشدوا مغنية قائلة: «شوف الزهور واتعلم.. بين الحبايب تتكلم».

وسيم العشاق مع الزهور غالبًا ما يتمثل في زهرة أو ثمرة ، أو غصن شجرة، أو عُود نبات، أو طحالب ، ويحملها العاشق شحنة عاطفية حسب قوة الحب أو فتوره، ويبعث بها إلى من يهواه، وقد عدّوا الورد صبابة، والشوك عداوة، والفل لطافة، والنبق فصاحة، والمرّ سعادة، وعبروا عن البسالة بالعرعر، والملالة بالطحلب، والدناءة بالعوسج، والهناءة بالكركم الأصفر، والطهارة بالّيْلك . حسب معجم المشعلاني وبعض معاني الزهر والنباتات حسنة المأتى، طيبة المدخل يتلقاها المحب بانشراح واستبشار؛ لأنها تنقل الود، وتعبر عن انتصار الحب، وبعضها الآخر سيئ الطالع ؛ لأن المعاني مثقلة بالذم، وتذكر المثالب، وتعمل على انقباض المحب، وتفصح عن ضعف الود، وسوء مصيره.

ونحن إذا تلفتنا إلى أحاسيس العشاق ، وأنعمنا النظر في سيمهم ، ألفينا لغة الزهور ملأى بشتى فنون التعبير عن مختلف ألوان الحب، وتقلباته التي تتناول غليان العواطف، وتما وجها

بالصب، وعدم استقرارها على حال، وتعبر عن فرحة المغرمين بالأخبار التي تبشر بقرب المزار، ودنو موعد اللقاء، ونعيم السعادة فيه، وهناك أزهار تحمل دلالات المرأة على تقبلها للعشق، والانخراط فيه والانفعال به، ومعايشته وممارسته وهي متأججة متوهجة، ومقدار تفاؤلها، والطريق التي تود أن تسلكها لتحقق رغائبها منه.

كذلك نجد الزهور التي تعبر عن ضعف الحب، أو طوره الثاني، والأحوال التي يمر بها من ملالة، وعدم اكتراث، وتراخ إلى أن يصل إلى الاشمئزاز والنزاع واللوم والكراهة التي تعمل على تهديم الشوق، وأخيرًا الانسحاب من العملية العشقية.

والعاشق وهو ينتقي الزهور أو النباتات التي تعبر عن بعض وقائع الحب في حياته يستظهر خوافي نفسه من مخاوف، وهواجس، وظنون، وغيرة إلى آخره، وهو بذلك يكشف عما طغى عليه أثناء رحلته الغرامية، والزهور التي تمثل هذه الحالات التي تناوبت عليه هي صور نفسية، ومنها زهرة «لاوندا» وتعني الشك، و«الورق الذابل»، ويمثل ما حل به من كآبة، و«منقاد الغراب»، ويمثل الغيرة.... وهذه الزهور أو الصور بمنزلة ترجمة باطنية لقلب في زمن الحب.

والحب ليس كله ساميًا عفيفًا، وإنما قد تنزله الشهوة من عليائه ، وتحيله إلى هوى جامح لا يُناهض، ويقع بعيدًا عن الطهر، ويخيل لي أن كثرة ذكر الشوق اللاهب، وإلا يغال في سرد الأوصاف الحسية مع دوام ذلك ، تولد الانفعالات العارمة ، فيقبل العاشق أو المعشوقة على مراودة الآخر، وتسهيل الانزلاق، وهناك من يغالب ولا يُغْلب، ومن يستجيب ، فيقع العاشقان في حب آثم ، ودلالات بعض الزهور توقفنا على صور من المغالبة، وغيرها من السقوط في الهاوية، فالورد الأبيض الذابل دلالته «أفضل الموت على فقد عفتي» ، وزهرة ياسمين إسبانيولي تعرب عن حب الشهوات، وورق عرف الديك يعني الخلاعة، وشجرة الأبنوس تعني الفحشاء ، وهذا يبين أن الذين صاغوا الجانب المشرق من الحب، لم ينسوا الجانب المعتم منه.

ومن أهم أحوال العاشق أو المعشوق ، أنه دائمًا منتبه يقظ، يحسب لكل شيء حسابه، ويتدبر ويمعن في التدبير، حتى لا يقع تحت نظر الرقيب ، لذلك يتخفي ويعمل ما في طاقته لصرف الأنظار عنه، فإذا لحظ شيئًا سارع إلى إرسال زهرة إلى المعشوقة مفادها أنهما مراقبان ، وأن أمنهما مهدد، أو تخطره هي عن طريق زهرة، بأن يلتزم الحذر، لذلك تكثر الزهور في سيم العشق التي تحذر من الوقوع في الخطر، أو تبشر بالأمان ، ومن

هنا فورد الدفلي يقول للعاشق : كن على حذر ، أو الدفلي غاوردي ينبه العاشق إلى أن يحترس لأن الخطر يحدق به، أو تأتي حشيشة الدينار لتقول صراحة: «يراقبوننا» ، وقد فطنت امرأة إلى رقيب يقتفي أثرها ، ويريد أن يوقع بها ليجعلها موضوعا للنميمة والفضيحة، فأرسلت إلى عاشقها زهرة تقول: «إذا رأيت الرقيب لا تتبعني»؛ لأن الفضيحة لا تتم إلا وهما مجتمعان، أما الانفراد فيقطع لسان الرقيب الحسود، وهذا من حيل النساء وهن في حالات العشق.

أما إذا شعر أحدهما بصفاء الأجواء، وخلوها من الرقباء ، فإنه يرسل إلى الآخر أوراقًا من زهرة اللاذنم لتبشره بالأمان ومن الخوف ونجاة الحب، بل تَعِده بالسهر الساحر والسمر اللاهي في ظلام الليل، وتبعث إليه بقليل من الشاي أي «انتظرني لما ينام الناس» ، وعلى أية حال فإن الليل الحالك خير أوقات تلاقي المحبين.

وزهرات العشاق المتنوعة تبكي عنهم ، وتظهر الحرقة والجوى وترطب القلوب، أو تزيدها حرارة ، وتعبر عن العاشق المغامر الذي يعتقد أن المرأة كالحياة يفوز بها الجسور، والذي يتطلع إلى حياة جياشة مع أفئدة حساسة ومهج لهفي، ومن يهفو إلى فردوس نقي تتعانق فيه الأرواح الطاهرة، ومن يتعامل مع عوالم الأطياف والخيالات تُغرِه الأحلام ، وفي هذا

السيم زهور دلّالة على الوفاء وصدق الوداد، ودوام الذكر وبقاء الحب إلى ما بعد الممات، والقدرة على تحمل العشق مهما تكاثرت همومه، ومن المحبين من استعذب الحب وطلب من محبوبه ، من خلال الزهور ، إعادة اللقاءات، وتجديد المواعيد الاستعادة المسرات.

وهناك من يزيف في الحسن لكي يجذب عشيقًا ويرغبه فيه ، بيد أن العشيق فطن نبيه سرعان ما يدرك أن هذا الحسن زائف مصنوع أو سيء الأصل ويرفض التعامل معه.

والعاشق أو المعشوق ليس قادرًا على التمييز بين الجمال المطبوع ، والجمال المصنوع فحسب، وإنما يفطن إلى مدى صدق المشاعر، ويبحث عما إذا كان الحب من الأعماق أو أنه سطحي عبارة عن شقشقة كلامية خدّاعة، وعبارات حلاوتها مستعارة، فيرسل زهورًا إليه تحمل ما يدور بخلده من ظن واتهام وارتياب، ويوالي إرسال الزهور التي تكشفه وتكسفه، وتفند ادعاءه ، وتقول له: «إن قلبك ميال لكل من تنظر إليه» وإن قلبك يخلو من الحب، أو أن ريبة تداخله وبإيجاز غير موثوق فيه.

ونظرًا لحالات الحب الكثيرة ، وتناقضاته ، ومتطلبات الجنسين من بعضهما البعض في إطار العلاقات الحرة ، وتراوح

ميولهما بين الحرية والتملك ، وما ينشأ أثناء ممارسة الحب من تشاؤم وأمل ، ويأس ورجاء ، وترابط وتفكك ، واعتدال وإسراف نتيجة تفاوت الشخوص وتباين الأفكار. وهل يكون التعامل بين المرأة والرجل على أساس الواقع أو المثال؟ هذا إلى جانب ما فيه من طيش وطهر على سبيل القول أو الفعل. إضافة إلى ما يلابسه من خداع وضجر ، ووئام وخصام، وحالات نفسية أخرى لا تستقصى.

أقول: نظرًا لوجود كل هذا في العلاقات الغرامية ، فإن من فطنوا إلى السيم لم يحددوا معنى واحدًا ، أو سيما معينًا لزهرة واحدة أو لنبات واحد ، وإنما أطلقوا على نبات ما من النباتات أو على زهرة من الزهرات وألوانها وأجزائها عدة ملاحن لتكون أوسع تعبيرًا ، وأدق دلالة على ما في نفوسهم. فالزنبق الأبيض حسب قاموس المشعلاني يعني: «حسن طبيعي» ، والزنبق الأبيض المبكس يعني: «الظرافة والأنس»، والزنبق الأحمر يعني: «احتراق العاشق في العشق» ، والزنبق الأصفر يعني: «الكذب والغش» ، وهذا شائع في ملاحنهم.

والمحبان بالرغم من أنهما يختلسان مسرات الحب في الأماكن الخالية، والأوقات الداجية، فإنهما يعتقدان أن الحب يرفع من قدر المحب، ويشرفه ، ويجدد دماء ملامحه، فتنبسط وتضيء ،

ويظل المحب يخلع على المحبوب أجمل الأوصاف زمنا، فلا جرم والحالة هذه أن نقرأ عن زهور تحمل هذه المعاني أو ما يشابهها مثل السوسن الأحمر الذي يعني أن «المحبة تساعد في تقدير الإنسان قدره» ، والدراقن التي تقول للمرسلة إليه: «صفاتك ومحاسنك لا تماثل» ، والسوسن الذي يصف المحبوب بالكمال[1].

ويحفل قاموس المشعلاني بنباتات وورود تتفتح في وجدان العاشق، وتحركه وتثيره، وإذا قلّب أوراقها ، واستاف أريجها، حدد له حفيفها ، وهو بمنزلة صوتها، الطريق التي يسير عليها.

(١) نسيب المشعلاني: «مخابرات الحب السرية ورسائل المملكة النباتية.

السيم في الحياة العملية:

والسؤال الذي يطرح نفسه ، هل هذا الكلام عن الزهور ورسائلها السرية الذي قرأته، وكتبت عنه مجرد كلام وتسلية؟! أو هو خيالات من تخيلات أناس لم يكلفهم تسطيره شيئًا؟! أو أن هذا أو شيئًا منه له رصيد في الحقيقة والواقع؟

كنت قبل أن أشتغل بهذا الموضوع ، إذا اشتريت كتبًا قديمة من باعة الكتب المستعملة أجد بين صفحات بعضها وردة جافة، تيبست أوراقها وتفتّت ، وكنت أستنفض الكتاب لأتخلص منها ، دون أن أفكر في أمر هذه الزهرة، ومن غير أن أشعر بأن ما ألقيته على الأرض هو أرق المشاعر الإنسانية، ثم أدركت بعد ذلك أن عاشقًا مستهامًا قطفها من حديقة وقدمها لصاحبته ربما من باب الذكرى، أو ربما عرف من غيره لحن الورود ، فاختار الزهرة التي تعبر عن مراده.

وإذا تجاوزنا هذا الكلام، ألفينا الكاتبة التركية الأصل السيدة «أليف كروتييه» تحدثنا عن دور الورود في التواصل الغرامي بين حريم القصر السلطاني في الأستانة العلية ، وعشاقهن المجهولين؛ لأنه لا يجرؤ رجل أو امرأة في السراي السلطانية على الحديث عن الحب والهيام، ويفصح عن اضطرام

عواطفه، أو يسهر في دياجي الليل لينتظر المحبوبة الغالية، ويكون هذا معلومًا لأي شخص، وإنما يمكن أن يتم كل هذا، وأكثر منه، عبر لغة الزهور السرية.

تقول السيدة «أليف»:

«في لوحة جون فردريك لويس «المراسِلة المقبوض عليها، نرى امرأة مفتونة بباقة[1] من الأزهار، وتصرُّفها يخلق اضطرابا طالما أن لكل زهرة مغزى رمزيًا، يدل على رسالة غير مباحةٍ من عاشق سري. هذا الشكل من التواصل في الحرملك أثار اهتمام الليدي ماري وورتللي مونتاغو فعممته في بريطانيا، حيث انتشر هناك كما ينتشر الوباء، وصدرت عدة كتب لكشف السر الكامن في كل زهرة، والطاقة الشافية في كل منها، والطريقة التي يمكن للمرء من خلالها أن يتواصل مع الحبيب. وسرعان ما تبنت السيدات الإنكليزيات الطرق الموصوفة لتساعدهن في لقاءاتهن الغرامية»[2]

ونص السيدة أليف هذا يظهر أن النسوة شرقيات وغربيات وغيرهن مستجيبات للحياة العاطفية، وراغبات في الاختفاء

(١) الصحيح طاقة من الأزهار.

(٢) أليف كروتييه: «عالم الحريم خلف الحجاب» ترجمة علي خليل – دار الكلمة – دمشق ٢٠٠٥.

وراء زهـرة، وأن الأوربيـات استهوتهن الأزهـار وملاحنهـا فاستخدمنها ، وبهذا اقتدت الأوربيات بالشرقيات في أن تكـون المراسلات الودية بالأزهار، وأعتقـد أن مـا شـجعهن عـلى هـذه الطريقـة أن الزهـرة ملائمـة لمشاعرهن ، وظـروف حيـواتهن ، وصالحة للتواصل بين حبيبين، وهـذا راجـع إلى أنهـا متـوافرة، وخفيفة الوزن، وصغيرة الحجـم، وسـهلة الإخفـاء ، وحتـى لـو ظهرت فإنها أولا وأخيرًا زهرة يوجد مثلها في كل مكان، ومهما كـان ذكـاء الرجـل فإنـه لا يـستطيع أن يقـرأ كلامـا مـستترًا بـين أوراقهـا، كـذلك فإنهـا إذا ألقيـت في أي مكـان في المنـزل، فإنهـا تحمل بداخلها الأشواق، وأوراقها أسوار تحافظ على الأسرار.

والأهم من كل هذا أن المراسلة بالأزهـار دفعـت الأوربيـين إلى البحث عن معانيها وحكاياها ، وتأليف كتب كاملـة في هـذا المجال، فإذا نهض واحد منّا الآن، وترجم كتابا تصايح النـاس، وقالوا: أخذنا هذا عن أوربا في جملة ما أخذنا.

ولم تكتف أليف بما ذكرتـه عـن التراسـل بـالزهر في القـصور السلطانية، وإنما تناولت اللغة السرية في حيـاة الـشابات عنـدما تغادرن زمن الطفولة ، وتقفن على درج الصبا والشباب، وتشع فيهن الأنوثة ، وتنبعث في جسد الواحدة اللدن الحرارة، وتحلـم

حلم الصبايا الذي تسرى فيه الحياة مقترنة بالحب، وتترنم بأناشيد الهوى للحبيب المجهول، وتعبر عن الزهر والثمر بعبارة رمزية ظاهرها يستر ما في مشاعرنا. تقول أليف كروتييه:

«ظلت قصص الغرام متقدة في مخيلات الشباب والشابات، فالفتيات في سن البلوغ، اللائي يكشفن خفق قلوبهن للمرة الأولى ، كن يمضين الساعات الطوال، وهن ينظمن الأشعار الرمزية لعشاق وسيمين من نسج الخيال، ويضفين على آلاف الأشياء الصغيرة كالأزهار والثمار، ونصال الأعشاب وريش الطيور والحجارة معاني خاصة، غالبًا ما يتم التعبير عنها شعرًا، فبضعة أكباش من القرنفل، أو قصاصة ورق ، أو شريحة من إجاصة، أو قطعة صابون صغيرة ، أو عود ثقاب، أو قطعة من خيط ذهبي، أو عود قرفة أو حبة فلفل كانت تعني: أحبك منذ أمد بعيد، أتحرق شوقًا لرؤياك، أضناني الغرام، أموت بك حبًا، هبني القليل من الأمل، لا تتخل عني، أجبني ولو بكلمة. وغالبًا ما كانت الفتيات يذهبن بعيدًا مع عُشاقهن المتخيلين لدرجة يصبح معها انكسار القلب أمرًا لا مناص منه حين يأتي الأزواج الواقعيون»[1].

(١) أليف كروتييه – المصدر السابق.

كل هذا كما هو والصبايا اللاتي تناولتهن أليف ، وذكرت أنهن تحدثن بلغة رمزية، وأضفين على الأشياء معاني خاصة، وهذا قريب كل القرب من السيم، لابد أنهن تعلمن هذا من نسوة ناضجات مجربات، وإلا فمن أين عرفن الرمز وإخفاء الشعور وراء كلام ظاهر أو ورد زاهر، وهن بلا تجارب ومعارف.

الزهرة ودلالاتها العشقية:

وقد يتساءل المرء عن علاقة الأزهار والنباتات بدلالاتها العشقية، ومفاهيمها عند متلقيها، فهل كل زهرة توحي المعنى الذي ارتبط بها؟ أو كيف نسب عاشق معنى معينا لزهرة محددة؟ وكيف أطلق اللطافة على الخبيزة مع أن كثيرين لا يستلطفونها؟ الراجح أن كثيرًا من المعاني التي خُلعت على الزهور كانت باتفاق بين العشاق مع بعضهم البعض؟

ولم يكتب كتابنا كثيرًا في هذا المجال، بيد أن الأستاذ العقاد قال:

«المتخاطبون بلغة الأزهار يرمزون إلى قوة الإحساس الجميل الذي تمثله الزهرة وفاقا لترتيب لونها في ألوان الطيف الشمسي، فمن الوردة الحمراء المتوهجة التي يمثلون بها اتقاد

الحب، واضطرام آلامه، إلى البنفسجة الحزينة الساكنة التي يمثلون بها الوداعة والسوداء .. مجال واسع لتفاوت الإحساس بالزهر على درجات التفاوت في ألوان النور، وامتزاج الأصباغ والنقوش»[1].

والعقاد هنا يربط المعنى الغرامي للزهرة بلونها وإحساسنا به، وعنده أن معاني الأزهار تتباين نتيجة تفاوت إحساسنا بها، وتفاوت ألوانها، أي أن معنى الوردة مرده إلى جمال شكل الزهرة، وإحساسنا بهذا الجمال، ومنح الأستاذ العقاد مقولته اتساعًا بذكره كلمة «تفاوت» حتى لا ينحصر قوله في إحساس واحد، أو شكل واحد من أشكال الزهور.

وهذا القول إذا انطبق في الحياة الواقعية على معاني عدد من الأزهار، فإنه لا ينطبق على معاني زهور أخرى، وكلام العقاد الفلسفي يصدق إذا كنا في حالة نفسية هادئة متزنة، أما في حالة الحب، والحب بطبيعته مضطرب متغير، فإنه يصعب فيه ضبط الأحاسيس والمشاعر حتى يمكننا استلهام المعنى الملائم لزهرة الحب.

(١) عباس محمود العقاد: «مراجعات في الآداب والفنون».

وهناك من يستوحى من الزهرة معنى يخصها به وهو في حالة الحب، وهناك من يستلهم من إحساساته بها معنى في أحواله العادية.

وأعتقد أن معنى الزهرة جاء نتيجة اتفاق بين عاشقين يضفيانه عليها ، أي يتفقان على أن زهرة كذا إذا وصلت إلى أحدهما من الآخر فإنها تعني أن اللقاء سيكون بعد الغروب (مثلا) ، وفي هذه الحالة يكون معنى الزهرة العشقي معلومًا لهما فحسب، فإذا وقعت هذه الزهرة في يد شخص آخر فلا يفهم منها شيئًا، وهكذا يكون السيم بمنزلة علامة أو أمارة بين اثنين يعرف من تصل إليه منهما المقصود منها.

وهناك قاعدة أساسية في السيم هي أن زهرة كذا لو حملت معنى معينا زمنا طويلًا، وبات معروفا للناس معناها ، فإنها لا تصير سيما، ولابد في هذه الحالة أن تحمل معنى آخر ، فالسيم يجب تجديده كلما تكشفت للناس دلالاته، وكيف تكون الزهور سيما وقد صدرت كتب تتضمن أسماءها ودلالاتها على نحو ما ذكرت السيدة أليف كروتييه ، وعلى نحو ما فعل نسيب المشعلاني في كتابه «مخابرات الحب السرية».

وبعض السيم ارتبط بزهور نسجت حولها أساطير في العصور القديمة مثل النرجس والبنفسج وغيرهما ، وحملت هذه الزهور دلالات أفاد منها عشاق الأزمان التالية.

التقارب والتباعد بين الزهرة ومعناها:

وإذا استعرضنا أسماء الزهور والنباتات، وتعرفنا على دلالاتها، حسب معجم المشعلاني، نجد قليلًا من هذه النباتات توحي بالمعاني المرتبطة بها، أو تتقارب أسماؤها ودلالاتها، وبعضها الآخر مبتوت الصلة بمعانيه.

ومما يمكن تقريبه إلى العقل من دلالات الزهور «زهرة ندى الشمس» وتعني في سيمهم «انتظرك عند الصباح»، وزهرة «ورد عرائس» وتعني في عرفهم «المحبة السعيدة»، وبين العرس والحب السعيد رابطة وثيقة، وكأن واحدًا منهما يُطمئن الآخر بقرب الزواج، وزهرة الفل رمز اللطف والظرف، والسيم هنا وصف للمحبوب، وتشبيب به، وتكريمه، وثمر الفلفل أي أحرقت قلبي، وفي هذا السيم صلة بين الفلفل الحراق، واحتراق القلب بالحب الشديد، وشجرة «الصبر» ويعني عندهم «الحزن». وفي هذا السيم ملاءمة بين الصبر والحزن؛ لأن الإنسان يصبر على مكروه أو عند نزول نائبة به، ويظل وقتًا وهو محزون أليم، وأوراق الشاي ويعنون بها: «انتظرني حتى ينام الجميع»، وهو سيم بمنزلة دعوة من أحد العاشقين بأن يشرب شايا يساعده على التيقظ والسهر حتى ينام الرقيب أو العذول، وكل من يحول دون لقائهما، ونبات

الشوك، والشوك كله عندهم رمز للصعوبة والخشونة والعنف والنفار ، وكلها من المعاني الملائمة للشوك ، والتنباك في سيمهم «أنسى كل همومي عند رؤياك» ، والعاشق يريد القول: إن المعشوقة مثل التنباك الذي يكيّف مزاجه ، ويرضي شعوره ، ومعاني هذه النباتات وغيرها ، يمكن إدراك مدى ملائمتها للزهور بعد تأويل بسيط، وتحقيقها لما يرمون إليه من غايات وأغراض.

وعلى هذا يمكن القول: إن قسما من سيمهم مستوحى من هذه الزهور والنباتات التي يتخاطبون بها ، ولا يعني ما أوردناه من زهورهم ومعانيهم ، أن شخصًا آخر لو رأى جارية أو عجوزًا أو دلّالة وهن الواسطات بين العشاق ، تحمل شايا يفهم منه ما شرحناه ، إنه سيم بين العاشقين يفهمه المرسل إليه، ويخفى على حامله ومشاهده . وما نود قوله : إن ما ذكرناه من زهور العشاق ومعانيها مستساغ لما بين الزهرة والدلالة من تقارب.

وهناك أزهار ونباتات أخرى ألبسوها معاني ودلالات بعيدة كل البعد عنها، إلى درجة انعدام الصلة بين الزهور وما يصاحبها من المعاني، فحسب معجم المشعلاني: الرمان معناه الحماقة ، وغصن النبق يعني الجحود والنكران ، والفجل يعني

«كلما بعدت عني زاد ولعي بك» ، فهل الصحيح أن يزداد ولعنا بالمحبوب أو ينقص إذا ابتعد الفجل أو اقترب؟ والسوسن يعني الهجر ، والصفصاف في سيمهم يعني الصدق ، وشجرة الخوخ تعني التعزية.

وهكذا نجد هذه الأزهار والنباتات وغيرها لا توافق المعاني التي اقترنت بها ، مما يفيد أن هناك غرابة في السيم لإخفاء ما يجول في نفوس الأحباب من أسرار وأفكار.

لغة الزهور بين الذاتية والموضوعية

وسيم الزهر كما نعتقد يعبر عن إحساس ذاتي للحب، أو لحالة فيه ، وليس عن مفهوم موضوعي بحت ، ذلك أن المحب يسقط على زهرة معينة معنى أثارته في نفسه، أو شعر به ، أو اتفق مع صاحبته عليه ، وقد يرى غيره في هذه الزهرة عينها شيئًا مختلفًا.

فالنرجس مثلا يمثل الاعتبار والوقار ، لا في قاموس المشعلاني فحسب، وإنما في غيره، وينسب إلى كسرى: «إني لأستحي أن أغازل من أحب بمجلس فيه النرجس» ، وربما يرجع هذا إلى حياء النرجس وعدم تبرجه كما يقول ابن لؤلؤ:

والنرجس الغض اعتراه الحيا
فغض طرفا فيه أسقام

أو كما يقول غيره:

يغض من فرط الحيا طرفه
ما أحسن الغض من النرجس

وأهم ما ذكره الشاعران ، وهناك غيرهما، أن النرجس يغض طرفه حياء، ولكن هذا إحساس شعراء دون شعراء ، فغيرهم يجردونه من غض الطرف والحياء، ويذهبون إلى أنه فتّان يزهو بفتنته ، ويتيه، ويتحدى غيره من الزهر والنبات ، وهذا ما يراه أمين الدين جوبان:

نفش غصن البان أذنابه
وماس عند الصبح زهوا وفاح
وقال هل في الروض مثلي وقد
تُعزى إلى مثلي قدود الرماح
فحدق النرجس يزهو به
وقال حقا. قلت ذا أو مزاح
بل أنت بالطول تحامقت
يا مقصوف عمر بالدعاوى القباح
فقال غصن البان من تيهه
ما هذه إلا عيون وقاح

فها هو النرجس على وقار وحياء عند قوم ، وعند غيرهم يزهو بحسنه، ويختال بجماله ، ويبرز من خدره ، ويتصدى لغيره من النباتات التي تنافسه ويشتجر معها.

معركة حول الورد والآس:

على أن تباين النظرات في الحب والحياة بين العشاق تتجلى في زهور أخرى يوظفها المحبون في إظهار رغائبهم، ونوازع عواطفهم الميالة إلى التواصل مع الأحباب، ولأن الحب عمره قصير، فلا يتحقق فيه استمتاع وافر، وقد يطول ويعمل على إشباع العاطفة بالود الزائد، فما من عاشق إلا وينشد استقرار الحب، لاستمرار السعادة، وقد تحقق هذا المعنى في أقوال الشعراء العشاق من خلال زهور قصيرة العمر كالورد، وأخرى مديدة الحياة مثل الآس. وتفاوتت نظراتهم حول هاتين الزهرتين.

فقال عبد الله بن طاهر:

أرى حبكم كالورد ليس بدائم
ولا خير فيمن لا يدوم له ود
وحبي لكم كالآس لونا ونضرة
له زهرة تبقى إذا فني الورد

فنقض شاعر آخر هذا الشعر بقوله:

وأشبه حبّي الورد وهو نظيره
وهل زهرة إلا وسيدها الورد

وحبـك كـالآس المريـر مذاقـه
وليس لـه في الطيـب قبـل ولا بعـد[1]

وإذا كان العراك بين هـذين الشاعرين متعـادلا حـول الـورد والآس، فإنه في أشعار كثيرة يخسر الـورد أمـام الآس بـسبب قصر عمره. وهكذا ارتبط الورد في سيم معظـم العـشاق بقـصر عمـر الحـب، وقلـة سـعادته، وارتـبط الآس في لغـتهم الرمزيـة بطول مدى العشق.

وقد تفنن أهل الهوى العرب في مجال اللحن، وقـدموا الـشعر

(١) قال شاعر ينتصر للآس ويتفاءل به

حبّـى بغـصن الآس مـن أحبتـه	فرجـوت منـه اليـأس مـن هجرانـه
وتفاءلـت روحـي بـأن وداده	كـالآس يبقـى في اخـتلاف زمانـه

وقال غيره في صالح الآس:

يمكـث الـورد برهـة ثـم يمـض	وإلى الآس نلتجـى كـل حـين
إنـما الآس للوصـال أسـاس	وهـو يبقـى عـلى مـر الـسنين

وبرهة هنا ليست لحظة، ولكنها فترة من الزمن، ومهما كان عمر الورد قصيرًا فليس هنيهة أو عدة ثوان أو دقائق.

وعاب آخر الآس لاتصال حروفه باليأس:

مـا أحـسن الآس في عينـى وأطيبـه	لولا اتـصال حـروف الآس باليـاس
ما ضر من كان أهدى الياس من يـده	لـو كـان ريحانـة تغنـى عـن اليـاس

انظر في هذا سفينة الملك مصدر سابق.

الجميل الذي يليق بأحبابهم، وزينوه بالورود المعبرة عما في نفوسهم، وجاءوا عليه بالمعاني في روية، وضمنوه الكلام البليغ مع حسن تصرف، وعلو ذوق وأدب، ومن ذلك أن عاشقا قال:

لا أحب السواك من أجل أني
إن ذكرت السواك قلت سواكا
وأحب الآراك من أجل أني
إن ذكرت الأراك قلت أراكا[1]

والأراك سيم بمعنى الرؤية، وبين الأراك وأراك تورية ، ومع أن السواك مأخوذ من شجر الأراك الحامض المر، فإن الشاعر فضل أن يقول الأراك من أجل صاحبته، ولا يقول السواك.

ومن هنا يمكن القول: إن المعاني المتعلقة بالزهور ليست إلا إسقاطات عشاق أو شعراء محبين، أو أناس عاديين يعبرون عن ذواتهم، وأذواقهم، وفقا لطبائع نفوسهم ، وأمزجتهم، وما إطلاق المعاني على الزهور إلا لون من ألوان ممارسة الإنسان لطقوسه مع الحب والطبيعة.

(١) من أشعار ألف ليلة وليلة . ليلة (٢٠٥)

وهناك زهور ارتبطت بمعان ودلالات ، وجاءت الأقوال فيها متقاربة أو متشابهة مع ما أطلقه أهل الحب عليها، ومن هذه الزهور «شقائق النعمان» التي ترمز للحسن البراق في سيم العشاق. فإذا أهدى معجب إلى معجبة «شقيقا» ، فكأنه يقول لها : «محاسنك براقة»، ونجد مثيلًا لهذا السيم عند المحبين الشعراء الذين تغزلوا في شقائق النعمان، فالعلاء بن أيبك الدمشقي يقول عنها: إنها «ذات توقد..» ، وعند القاضي بدر الدين الدماميني المالكي:

سوادك يا زهرة الشقائق قد زها بحمرة أوراق يروق سناؤها[1].

ويصفه ظافر الحداد بقوله:

وللـــــشقائق جمـــــر في جوانبـــــه
بقيـــة الفحـــم لم يـــستره باللهـــب

فها هي أقوال عديدة تؤكد أن الشقيق متوقد وملتهب يروق سناؤه، وكل هذا لا يخرج عن تمثيله للحسن البارق أو السناء للامع كناية عن الجمال الأخاذ.

(١) أبو البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري : «نزهة الأنام في محاسن أهل الشام» ، المطبعة السلفية ١٣٤١م.

ومع أن كل هذه الأوصاف تتفق مع رمزه في السيم الذي أشرنا إليه، فإن بعض الشعراء المحبين لا يرغبون في أن يُهدي إليهم من أحبابهم، ويتشاءمون منه ؛ لأن نصف اسمه «شقاء» على حد قول أحدهم:

لا يحب الشقائقا
كل من كان عاشقا
إن نصف اسمه شقا
ء إذا فهمت ناطقا

ولكن يبقى التوافق بين معنى المحبين وأوصاف الشقيق، وهو الحسن البراق .

وزهر الرمان أو الجلنار[1] كما يذكره بعض الشعراء من الزهرات الأخرى التي وافقت أوصافها المعنى الذي قصده المحبون في سيمهم، فزهرة الرمان رمز «للعيوق الكامل» في سيم الحب. ووصف الشعراء لهذه الزهرة الجميلة يداني ذلك، فأبو حنيفة الدينوري يصف نوّار الرمان الأصفر الذي يعلوه ورق أحمر مشرق بأنه أرق بشرة من الحرير، ويقول عنه ابن وكيع التنيسي: إن ضرامه بهي، ويميد في غصون خضراء،

(١) الجلنار لفظ فارسي.

ويحكي فصوص العقيق في قبة زبرجدية ، أما أبو فراس فقد وصفه قائلًا:

وجلنـــار مـــشرق عـلى أعـــالي شـــجره
كـــأن في روءســـه أحمـــره وأصـــفره
قراضـــة مـــن ذهـــب في خـــرق معـــصفره

وهذه الأوصاف والتشبيهات تجعل من الجلنار زهرة فاتنة ترنو إليها الأبصار، كما ترنو إلى «العيوق الكامل».

وعلى هذا نجد تقاربا بين سيم بعض زهور العشاق، وأوصاف الشعراء لها، ومرد هذا إلى تناول الجانب الحسي الواقعي في النبات، فالشعراء وصفوا زهرتي الرمان والشقيق على حالتيهما في الطبيعة ، والخيالات الواردة في شعر الشعراء تترجم الواقع ولا تزيفه، فإذا استقى العشاق معاني زهورهم وسيمهم من ظاهر النبات أو خصائصه فقد أضفوا على لحنهم طابعًا موضوعيا يمكن بعد نظر وتأويل فهمه.

أما خلع المعاني على الزهور والنباتات دون أن تكون هناك أدنى علاقة بين النبات أو خصائصه، والدلالات التي تُضفى عليه، فإن هذا من قبيل التواطؤ، فشجر «المر» كيف يكون باعثا للفرح، والمسك كيف يكون ضعيفًا، وهو طِيب فواح ينشط

الجوارح وينبه الحواس؟ وكيف توحي الملوخية عدم الصبر على غياب المحبوب؟ وغصن النبق عندهم يعني الجحود والنكران، والنبق عند العرب يعني بقاء المحبة، فكل هذا تواطؤ بين المحبين.

التفاح:

وهدايا العشاق زهيدة في قيمتها المادية، كبيرة في قيمتها المعنوية، تأتي عند المحبوب ناقلة للأحاسيس، مثيرة للخواطر والأفكار، مهيجة للعواطف والمشاعر، مذكّرة بأوقات سعيدة مضت، ومثل هذه الهدايا لا نبحث في نفعها وملائمتها لمن يتلقاها، وإنما قطعا لها مغزى، وغرض سري، وهو ما يتواءم مع سيم الزهر والثمر.

وقد جاءت لابن المعتز العباسي تفاحة هدية فقال:

تفاحـــــةُ معـــــضوضة
كانـــت رســـولَ القبـــل
لـــو كـــان فيهـــا وجنـــة
تَنقّبَـــــتْ بالخَجَـــــل

تَناولَـــتْ كَفّـــى بهـــا
ناحيـــة مـــن أهـــلى
لـــست أُرجّـــى غَـــيرَ ذا
يـــا ليـــت هـــذا دام لى[1]

وعضعضة التفاحة، ثم إهدائها وهي معضوضة، وآثار الأسنان بادية فيها، معناها التقبيل؛ لأنه إذا همّ بأكلها وضع فمه في مكان فمها، أو ثناياه على ثناياها. لذلك فالتفاحة المعضوضة رسول القبل. وهذا سيم لائح.

وهي ليست تفاحة واحدة، فالظاهر أن ابن المعتز العباسى ألف هذا النوع من الهدايا يقول:

وآثار وصل في هواك حفظتها
تحيات ريحان وعضات تفاح[2]

والتفاح المعضوض غير قليل في شعر ابن المعتز، مما يشي بأن صاحبة معينة اعتادت على إهدائه له، لتخطر في باله كلما رأى التفاح حتى وإن لم ترسله له أو يدل على سيم محدد يعرفه كلاهما.. يقول:

(١) ابن المعتز، ديوانه ص ٣١١. ط دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت. د. ت.

(٢) المصدر السابق ص (٣)

جـاءَ الرّسـولُ مبـشراً بزيـارةٍ
مـن بعـد طـول تهجّـر ، وتغـضّب
وبكفـه تفاحـةٌ قـد مُـسّكت
أثـار عَـضّتها ، كقرنـى عَقـرب

وقد يكون المغزى من إهداء تفاحة تأكيد المحبة، وتوثيق المودة، والحيلولة دون الهجر والصد، وتلطيف الجو على نحو ما يقول شاعر:

أعطـت يـداه محبـة تفاحـه
تعطـي المحـب آمانـة مـن صـده

والتفاح المعضوض «رسول القبل» كثير في الشعر العربي، وقد أكثر الشعراء من قولهم: «تفاحة من تفاحة» ، والتفاحة الأولى هي الثمرة ، والتفاحة الثانية هي المرأة، وهي رسالة سرية، وربما حاملها ، إلى من يعنيه أمرها، لا يلحظ أثر العض. أو غرس الثنايا في قشرتها. لذلك يعدها العشاق «كتومة» لأدق الأسرار، وفي كتاب «الموشّي» كلام مفاده أن شاعرًا عاشقًا كتب على تفاحة:

إذا مـا مُرسِـل نـ ـم فـما أنـت نمومـة

أنـــت ريحانـــة قلبـــي ثـــم للـــسّر كتومـــة[1]

وسيم التفاحة واضح وطبيعي، وأقرب إلى الواقع، ولا خلاف عليه، كما أن العاشق يتبلغ ببعض الحب العملي؛ لأن التفاحة المعضوضة فيها اكتراث بالحب، وتدفع إلى القرب والعطف أكثر من أية وسيلة أخرى، فالسيم الآخر لا يزيد على كرنه مراسلات كلامية، وإشارات عين، وتحريك حواجب. وعلى أية حال فإن التفاح في سيم الحب هو الإغراء والغواية.

وإذا كان الواقع في سيم التفاح لائح، فإن التفسير الذاتي لسيم البنفسج هو الحاصل، يقول شاعر:

أهـــدت إليـــه بنفـــسجا يـــسليه
تنبيـــــه أن بنفـــــسها تفديـــــه
فارتـــاح بعـــد صـــبابة وكآبـــة
ورجـــا لحـــسن الظـــن أن تدنيـــه

وسيم زهرة البنفسج هنا هو فداء الحبيب. وفي معجم المشعلاني «إنها رسول اليمن والإقبال، والبشير بتحقيق الآمال»، وهذا وذاك لا يمثل الواقع في شيء، فلا هي تمثل الفداء، ولا هي بشرى بتحقيق السعد، ولكن هذا قد يكون من

(١) أبو الطيب بن يحيى الوشاء: «الموشي أو الظرف والظرفاء».

باب حسن الظن كما قال الشاعر، لا من باب الموضوعية وتمثيل الحقيقة، ولا نعيب على العاشقين الإغراب والغموض في سيمهم، فإن السيم ليس من وظائفه، أو من غاياته تمثيل الواقع، أو يأخذ دلالاته منه، وليس في أصله أن يكون واضحًا، وإنما موضوع للتعمية والتمويه على غير المقصودين بالخطاب، ويكفي البنفسج ما قيل عنه من أنه مجرد رمز لسر يعرفه حبيبان.

التشاؤم والتفاؤل:

ويدخل في معاني الزهر والثمر والنبات، أحوال العشاق النفسية، وأمزجتهم الشخصية، فإننا نراهم يتطيرون من أزهار وثمار، ويتفاءلون بغيرها، دون سبب حقيقي، أو سند واقعي، يبرر قولهم، أو يفسر فعلهم.

ومعظم العشاق متطيرون يتوقعون الفرقة والبين، متوترون كثيرو التوجس والوهم، لا يأمنون الحاضر، ويخشون المستقبل، وكل هذا له تأثير في تقبلهم للزهر أو النبات الذي يهدى إليهم، ويعبر عن أحوالهم وتطلعاتهم.

ومن سوء حظ العشاق أن أسماء بعض الأزهار والنباتات العربية ساعدتهم على تفسيرها تفسيرًا يتجاوب مع التشاؤم واليأس، ويشعرهم بخيبة الرجاء، وجفاء الحياة، وكأنهم مستهدفون من قبل القضاء.

وللأستاذ أحمد أمين مقالة عن لغة الأزهار والثمار ذكر فيها أنه كان للظرفاء والمحبين المقيمين لغة متعارفة تدل على الهجر والوصل، والتفاؤل والتشاؤم، ووضح أنهم كرهوا التهادي بالسفرجل لأن أوله سفر قال الشاعر:

أهدت إليه سفرجلا فتطيّرا
منه وظل متيما مستعبرا
خاف الفراق لأن أول اسمه
سفر فحق له بأن يتطيّرا

وكرهوا التهادي بالذهب حتى لا يعترى العشق ذهاب، وكرهوا التهادي بالسوسن لأن أول اسمه سوء، والياسمين لأن أول اسمه يأس، والخلاف لدلالته على الخلاف، والبان لدلالته على البين وهكذا.

ويقول أحمد أمين: «ويتفاءلون بالتهادي بالعود لأن في اسمه معنى العودة، وبالنبق كما قال الشاعر:

أيـــا أحـــسننا خلقـــا
ومـــن فـــات الـــورى ســـبقا
تفاءلـــت بـــأن نبقـــى
فأهـــديت لنـــا النبقـــا
فأبقـــاك إلـــه النّـــا
س مـــا سرك أن نبقـــى

وكرهوا التهادي بالأترج ؛ لأن ظاهره غير باطنه ، فهو حسن الظاهر، حامض الباطن ، طيب الرائحة مختلف الطعم. قال الشاعر:

أهـــدى لـــه أحبابـــه أترجـــه
فبكى وأشفق من عيافة زاجر
خـــاف التلـــون إذا أتتـــه لأنهـــا
لونان باطنها خلاف الظاهر[1]

وكل هذا الكلام ليس له أساس صحيح، ولا صلة له بالواقع أو بخصائص الزهر والثمر، وإنما النباتات التي في أسمائها بقاء مثل النبق ، أو عوْد مثل العود، أو طول عمر مثل الآس يتمسك بها العشاق المعاميد، ويتراسلون بها من باب

(١) أحمد أمين . مجلة الثقافة ٣٠/ ٩/ ١٩٤١ ومعظم مواد المقالة مقتبسة من كتاب «الموشّى» للوشاء دون إشارة إليه.

الاستبشار والتفاؤل ، ويجدون في ذلك تقوية لقلوبهم، وتهدئة لأشجانهم، وإنعاشًا لآمالهم، ولكن هذا لا ينهض على قاعدة منطقية، ولا يقنع العقل اليقظ، ولا يقاوم الحياة المؤاجة المتضاربة ، فقد يقع البين بالرغم من إهداء «النبق»، ويهجر المحبوب بعد تقديم «العود» إليه من المحب.

ولعل الجناس بين العود وهو ساق النبات، والعوْد وهو الرجوع، وبين تفاؤل العاشق «بأن نبقى» لما «أهدت له النبق» قام بدور في هذا التفاؤل وهذا السيم.

ولعل سبب تشاؤم وتفاؤل المحب هو رهافة شعوره، وخوفه من الآتي، فالعاشق يشعر وهو يمارس الحب أنه موجود وكائن حي يرغب ويرفض، أما إذا انقضى الحب فإنه يدخل في الغسق، ويتسلل إليه اليأس، والشك في قيمة الحياة، ويشعر بخيبة الرجاء والإحباط ، ويعاني من الوحدة والوحشة، أو بإيجاز يحس بأنه غير موجود، لذلك يود أن يكون متفائلًا، ويُقبِل على ما يجدد رغبته في الحياة السعيدة، ويرفض ما يعرض وجوده للخطر.

وهذا الحديث العقلي لا يحول دون استخدام العشاق لسيمهم، ولا يحد من تفاؤلهم. وكل ما يمكن قوله: إن المزاج الشخصي يتدخل في صياغة السيم العاطفي.

ويجب على العاشق أو غير العاشق ، أن يعرف ، أنه مهما تلقى من هدايا مُعمرّة ، أو قصيرة الأجل، ومهما مر بتجارب، وكر وفر، فإنه لن يلقى في حياته إلا قَدَرَه ، وما التفاؤل والتشاؤم، إلا هواجس تنبعث فينا، وتلوّن أمزجتنا، وتميل بنا ناحية السواد الحالك، أو ناحية البياض الزاهر.

obeikan.com

معجم في سيم الزهور والنباتات

وإذا كانت بعض الكتب ودواوين الشعر العربية قد أوردت نتفا قليلة، وأشعارًا متفرقة تنطوي على ملاحن لعشاق في مجال الزهر والنبات، فإن جهدًا كبيرًا نهض به نسيب المشعلاني، ويعد علامة بارزة في ميدان لغة الزهور، إذا وضع معجما جمع فيه ملاحن مئات الزهور والنباتات، ورتبه على حروف الهجاء، ودعاه: «مخابرات الحب السرية ورسائل المملكة النباتية» ونشره عام ١٨٩٧ في بيروت، وقدم له بدراسة تناولت عددًا من الأزهار مع إيضاح أسباب تسميتها، وذكر ما دار حولها من أساطير وحكايات، وحلاّه بشعر رقيق يدور حول الحب والزهور.

وتشعر من خلال هذا المعجم أن الحب انتقل من التعبير بالنظرة والابتسامة والكلمة إلى التعبير بالزهرة والثمرة والنبات، فهذه الأشياء صارت بمنزلة معاني الحب وأحواله ودرجاته، بل يمكن إدراك نمو العلاقات العاطفية وانتكاستها، أو ما يسمى في لغة العشق بالهجر والسلو من خلال حوار العاشقين بلغة الزهور.

ومن مزايا هذا المعجم الفريد إظهار المعاني بكلام موجز قليل، فقد يكون المعنى كلمة واحدة ، أو كلمتين مترادفتين، أو جملة قصيرة مفيدة ، وهذا المعنى المكنون من كلمة أو أكثر، له إيحاء ووقع في العواطف ، وقدرة على تحريك المشاعر، وما أود قوله أن مدلول زهرة ينبه نفس القارئ إلى ذكرى ، حتى وإن لم يكن قد أهدى إلى من أحب زهرة من نفس النوع.

وقد يكون صاحب المعجم أفاد من تراث الحب العربي في وضع دلالات الزهور ، ولكن الأرجح أنه أفاد إفادة أوسع من تراث العشاق في الآداب الأخرى وبخاصة الأوربية ، لأن أدباءنا وعشاقنا لم يستخدموا كل هذه الزهور والنباتات، ووضعوا لها كل هذه المعاني، وإنه مهما يكن من أمر فإننا لا نعثر على مثيل هذا الذي قدمه المشعلاني في تراث العشق العربي.

بل إن هناك فارقًا في دلالات الزهور والثمار في تراث الحب العربي والتراث الأوربي أو التراث الذي نقل عنه المشعلاني، فالسوسن عند العرب دلالته السوء . وفيه يقول شاعر:

يا ذا الذي أهدى لنا سوسنا ما كنت في إهدائه محسنا
أوله سوء، فقد ساءنى يا ليت أني لم أر السوسنا

أما عند الإفرنج فإنه يعني الحوار والوصال، فإذا أرسل محب

لمحبوبه سوسنا فإنه يعني أن يحرر له رسالة. ويتطير العشاق العرب من زهر الياسمين لأن في اسمه يأس، يقول شاعر:

أهدى حبيبي ياسمينا فبى ... من شرة الطيرة وسواس
أراد أن يوئس من وصله ... إذا كان في شطر اسمه اليأس

أما عند من نقل عنهم المشعلاني فيدل الياسمين على اللطف والأنس، والرمان عند العرب ينبئ بقرب الوصال واللقاء، يقول شاعر:

أهدت إليه بظرفها رمانا ... تنبيه أن وصالها قد أنا
قال الفتى لما رأه تفولا ... وصل يكون متمما أحيانا
رمّ يرم تشعثي بوصالها ... لقد التفول صادقا قد كانا

والتفول هو التفاؤل، والرمان في معجم المشعلاني يعنى الحماقة في الحب، وهو غير زهر الرمان أو الجلنار الذي أشرنا إليه، وهكذا تتباين معاني الزهور والثمار بين بيئة وبيئة ، وهناك دلالات لزهور وثمار ونباتات يتلاقى عندها العرب وغيرهم ممن نقل عنهم المشعلاني، مثل الورد رمز الحب حتى الموت، وإن كان بعض العرب يتطيرون منه لقصر عمره والريحان مكروه عند العرب وعند غيرهم ، فهو في معجم المشعلاني يعني البغض، وعند العشاق العرب رمز لهتك الأسرار لذلك يتطيرون منه ويسمونه «النمام» يقول شاعر:

حييتها بتحية في مجلس بقضيب نمام من الريحان
فتطيرت منه، وقالت: أقصه لا تقربن مضيع الكتمان[1]

وهناك ثمار وأزهار أخرى تتقارب معانيها عند العرب وغيرهم.. والسيم كما ذهبنا تواطؤ ومواضعة.

وثمة نباتات أخرى استخدمها العشاق العرب، وعينوا لها معاني، ووردت في أشعار، ولا وجود لها في معجم المشعلاني مثل الخلاف والبان والشاهلوج وغيرهم، وهذا راجع إما إلى قصور في هذا المعجم، وإما إلى عدم وجود مثل هذه النباتات في السيم الأوربي.

ولكن إذا كنا قد انتقدناه، فإنه يجب الإشارة إلى عمل آخر له جعل فيه «لكل زهرة معنى والحوادث التي أوجبت ذلك» كما ألمح في المقدمة. ولعله استوفى في الكتاب الثاني ما فاته في كتابه هذا. بيد أننا لا ندري إن كان العمل الأخير قد رأى النور أم طواه النسيان.

وقد مهد المشعلاني لفصول كتابه، وعقب عليها ببعض المقطعات الشعرية الرقيقة، وكلها في وصف الثمار والأزهار،

(١) الموشي مصدر سابق.

وذكر حسنها ومعانيها، أو في تصوير الزهور الغياري[1] من بعضها البعض ، أو في الحديث عن دورها في العشق.

وكل ما أورده من شعر مناسب لموضوعه وعلى وجه الخصوص تلك المقطعات التي تناولت إهداء المحب لمحبوبه الزهور والثمار ، وما انطوى عليه ذلك من معنى قريب أو بعيد من مثله:

ومهد إلينا لوزة قد تضمنت لمبصرها قلبين فيهما تلاصقا
كأنهما حبان فازا بخلوة على رقبة في مجلس فتعانقا

ونواة اللوزة فيها فصان، ولقد تراءى للشاعر أن الحبيبة ترمز بالفصين المتلاصقين إلى قلبين متعانقين هما قلبها وقلب عشيقها، وهذا من أفانين المحبين.

وثمة مقطعة أخرى فيها ربط وثيق بين تلوين الزهر وأحوال أهل الهوى ، فقد جاء عن النيلوفر:

رأيت في البركة نيلوفرا فقلت ما شأنك وسط البرك
فقال لي: غرقت في آدمعي وصادني ظبي الفلا بالشرك

(١) أي الزهرة التي تغار من أخرى ، وقد ذكر المشعلاني في أشعاره أن النرجس أصغر غيرة من الورد ، والورد الذي يحنق على العرعر.

فقلت : ما بال اصفرار بدا فيك وما هذا الذي غيرك
فقال لي: ألوان أهل الهوى صفر ولو ذقت الهوى صفرك

والنيلوفر نبات متعدد الألوان منه الأصفر والأزرق والأحمر، وينبت في البرك والجداول، وعلى شواطئ الأنهار، والشاعر هنا يعلل لون النيلوفر الأصفر، ويذهب إلى أن هذا النبات أدركه العشق ، فاصفر لونه ، مثل بقية أهل الهوى، وهو تعليل خيالي عاطفي، والشاعر لا يحاسب حسابا منطقيا عمليا صارما على أقواله.

والأشعار الأخرى الواردة في كتاب «مخابرات الحب السرية» تشكل حديقة ساحرة تتماوج فيها الزهور المختلفة الألوان والأوصاف ، وبين هذه الأزهار أودع المحبون المتيمون أسرارهم.

صدر كتاب «مخابرات الحب السرية» عام ١٨٩٧ كما أسلفنا القول، وعقب صدوره كتب جرجي زيدان كلمة عنه يقول فيها:

«هو كتاب في لغة الأزهار جمعه حضرة الشاب الأديب نسيب أفندي المشعلاني ذكر في أوله كلاما عامًا في الزهور ومعانيها ورموزها ، والسر في دلالاتها على ما يدلون عليه بها،

ثم جاء بأسماء الأزهار مرتبة على الأبجدية[1]، ولا يقل عددها عن ١٣٠٠ زهرة وبإزاء كل منها المعنى المراد بها، ولا يقتصر ذلك على الأزهار، بل يتناول الثمار وسائر أصناف النبات، ومن أمثلة ذلك دلالة الفل على اللطف والفستق على حفظ السر أي أنك إذا قدمت فستقا إلى أحد فكأنك تقول له: «أنا أحفظ السر»، وكدلالة القرنفل على الجسارة، والقمح على الغنى، وزهر اللوز على الرجاء، والورد على المحبة، والهليون على التعزية وقت الضيق، والنارنج على الجمال مع رداءة الأصل، فإذا قدمت نارنجة إلى أحد، فكأنك تقول له: أنت طيب، لكن أصلك رديء، وقس على ذلك.. «والكتاب متقن الطبع يباع في مكتبة الهلال، وثمن النسخة خمسة قروش صاغ وأجرة البوسطة عشرون بارة»[2].

وأشار لطفي جمعة في كتابه «مباحث في الفلكلور» إلى كتاب «مخابرات الحب السرية» واسم مؤلفه دون أية تعليقات عليه.

لذلك أعتقد أن هذا الكتاب لم يأخذ نصيبه من الشهرة في مصر، بدليل أن أحمد أمين حبذ في مقاله السالف الذكر أن

(١) الصحيح أنه رتب ترتيبا ألف بائيا.

(٢) مجلة الهلال مايو ١٨٩٨م.

يبحث أحد الباحثين عن لغة الزهور والثمار عند الأوربيين، ولو أنه اطلع على كتاب المشعلاني، ما كان كتب مقولته، أو كان ذكر كتابه وعلق عليه.

وليست لدينا ترجمة وافية أو شبه وافية عن نسيب منصور المشعلاني، وقد رجعنا إلى عدة موسوعات عن الإعلام، ولم نجد سيرة له، وكل ما نعرفه عنه أنه كاتب وشاعر ومترجم، نقل عن أرثر كونن دويل شارلوك هولمز، وترجم كتاب «محمد علي» الذي وضعه موهلباخ، وكان مديرًا لتحرير جريدة الأخبار القديمة التي أصدرها يوسف الخازن وعبد الحميد حمدي منذ أواخر القرن التاسع عشر، وأصدر في الفترة من عام ١٩٢٥م إلى ١٩٢٨م مجلة «السلوى»، وكان المشعلاني قد دون في آخر كتابه هذا:

كتبته بيدي والعقل يشهد لي　　　أني سأتركه يوما وأرتحل

ولا شك أنه رحل عن عالمنا، ولكن لا ندري متى!! رحمه الله.

وبعد نحو عشرين عامًا من صدور كتاب المشعلاني، ألفينا شاعرًا يدعى أمين حمدي من بور سعيد، يتمهر في صياغة سيم

لعدد من الزهور ، ويحمل كل زهرة من الزهور التي اختارها المعنى الذي يروق له ، أو الذي رأى أنه يناسبها ، ونشر قصيدة بمجلة الهلال تحت عنوان : «لحن الزهور» يقول فيها:.

يـا أيـدي الـرواد أن تجهـلي ... لغـات هـذا الزهـر لا تقطفـي
سلي هزار الروض عن سرها ... وسـائلي العـشاق واستكـشفي
شـقائق الـنعمان سـقم سرى ... في جسم معمود الهوى مدنف
والآس:إقـرار الفتـى بـالجوى ... كـأنما يـصبو إلى مـسعف
والزئبـق الأحمـر في طيـه ... قـول صريـع الوجـد يـا متلفى
والـسوسن الأصـفر يـا شـعلة ... في القلب تهدي كـل سر خفي
وأحمـر البلـسم صـبر مـضى ... فيـا ظبـاء القـاع هيـا اعطفـي
والـورد: أهـواك لا تنـسنى ... وإن منحـت العهـد لا تخلفـي
لا تنسني: لا تنسني واحفظي ... عهـود هـذا الحـب أن تنـصفي
وزهـرة النبـق: تركـت الهـوى ... لمـا زمـاني بـالقلى مجحفـي
وزهـرت النـسرين: عـود إلى ... مجـاني الحـب بقلـب وفي
والـسرو: حـزن وحـداد فيـا ... ريـح غـصون البان لا تقـصفي
هذي فصول من كتاب الهوى ... ملائـك الحـب ألا صـنفي [1]

وقد تتفق بعض دلالات الزهور في هذه القصيدة مع ما هو مشاع عنها، وقد تختلف ، ومرد ذلك إلى أن الشاعر له رؤيته الذاتية ، والسيم مرجعه إلى المواضعة والاصطلاح.

(١) مجلة الهلال فبراير ١٩١٦.

إشارات العيون

أدت العين أكبر أدوار العشق في حياة الإنسان العاطفية، لا من حيث جمالها وسحرها فحسب ، وإنما من حيث التفاهم والتخاطب والحوار وتوصيل المشاعر والأحاسيس إلى الآخر، وتبليغ المراد لمن تهواه.

ونظرات العيون لها دلالات أكثر من أن تحصى، فهي تعبر عن الحب، ولواعج الشوق، وتعرب عن الرضا والسخط، وتستفسر وتستفهم، وتظهر الطمأنينة والارتياب، وتعاند وتعتذر، وتحنو وتظهر القسوة، وعلى هذا فالنظرة مظهر للنفس، وتعبير عما يعتمل فيها، ومن يتفهم نظرات العين، يهتدي إلى كثير من أسرار القلب، ذلك أن ما يموج في عالم الفؤاد يتجلى في العين.

وإذا التقى رجل وامرأة وهما في عمر الحب، فلا يتأثر الأول بنظرات الثانية فحسب، وإنما قد تتأثر هي، وتشاغل الرجل، وتوقظ ما غفا من مشاعره وتستغرقه نظراتها، أما هي فقد تنتبه

أنوثتها، وتتقد من طول شخوص الرجل إليها ، وتنقّل عينيه في محاسنها، فتشب عواطفها من هذا الوافد الجديد الذي داخل حياتها، وأفاض عليها سعادة غامضة، فإذا كانا في مجلس يضم أناسا آخرين ، فإن هذا لا يحول دون توصيل كل منهما وداده للآخر بإشارات العيون، ومن هذا ما عبر عنه الشاعر قائلًا:

يلاحظها طرفي فتومي بطرفها
وتخبر عما في الضمير من الود
فإن فطن الواشون صدت وأعرضت
وإن غفلوا قالت نزال عن الود[1]

فالمرأة هنا ترقب الناس الواشين بعين، وترقب محبها بعين، عين هنا، وعين هناك، وترسل وتستقبل، تنفصل عن الناس في وقت ، وتتصل بمن تهواه عندما يسنح وقت آخر، وتنقل إليه ما تضمره نفسها ، وتكشف له عما خالجها من مسرات ، مع قدرة خارقة على تخليص نفسها من النظرة العادية ، إلى النظرة الخاصة المفعمة بالغزل.

(١) نسب أبو بكر الصولي البيتين إلى حمدان بن عبد الحميد اللاحقي في كتابه «كتاب الأوراق قسم أخبار الشعراء ، وورد البيتان هكذا في الأصل.

وهكذا تزيل المراسلة بالعين العائقَ المتمثل في وجود أناس، إلى جانب ما تتميز به من السرعة، سرعة اللمحة التي تستغرق زمن اللحظة ، زمن البرق الخاطف، وبعد أن كان المحب يعرف الحالة النفسية لمحبوبه من رسول أو وسيط ، قد يزيف أو يزخرف، فإنه أصبح يكوّن أفكارًا عن صاحبه من النظرات المباشرة المتتابعة التي تلقاها منه ، وصار يعرف بنفسه الحقيقة الظاهرة ، في العين الناطقة ، أو كما قال الشاعر أبو الحسين الجزار:

طرف المحب فم يذاع به الجوى
والدمع إن صمت اللسان لسان[1]

وليس المهم هنا في هذا البيت أن العين تترقرق فيها الدموع، أو تلمع بالسرور، وإنما المهم أن الطرف هو لسان الفؤاد الناطق.

وقد تُصوّب العين إشاراتها العاجلة ، ومضاتها الخاطفة في العين الأخرى التي تتلقى الإشارات، وتعرف المراد ، بل تجيد المعرفة حتى يستبين لها الأمر ، وكأن العين المتلقية تمهرت في

(١) ورد هذا البيت في كتاب «المُغرب في حُلى المغرب» القسم الخاص بمصر لابن سعيد المغربي.

قراءة ما كتبته العين المرسلة ، وتبينت خافي السر، وفي هذا يقول الشاعر:

كـــم عاشـــقٍ جـــدّث بأجفَانِـــه
معـــــشوقه بالـــــذي أضـــــمرا
أوحـــى إليـــه لحظـــه بـــالعين
إني عَلمـــتُ الـــذي قـــد جـــرى
فـــما أحـــسن اللحـــظ في وجهـــه
ومـــا أرشـــق الطـــرفُ إذ عـــبرا
فهـــــذا بأجفانـــــه كاتـــــب
وذاك بمقْلتِـــــهِ قـــــد قـــــرا[1]

(١) حكاية القرندلي الثاني – ألف ليلة.

أسباب التخاطب بالعين:

ويعرف العاشقون دور العين في العشق منذ مناشئه إلى خواتيمه ، وقدرتها على سبر الأعماق ، وتوصيل المراد، والتعبير عن المشاعر المزدحمة في الصدور، فلجؤوا إليها ليفلتوا من الرقباء والوشاة ، وتخاطبوا بها ، وبخاصة إذا كان الحبيبان وسط جمع من الناس، ومما ينسب إلى مجنون ليلى:

إذا خفنا من الرقباء عينا
تكلمت العيون عن القلوب

ومما قالته عُليّة بنت المهدي وكانت عاشقة:

تكاتبنا برمز في الحضور
وإيحاء يلوح بلا سطور
سوى مقل تخبر ما عناها
بكف الوهم في ورق الصدور[1]

وقالت عُليّة أيضًا:

صحائفنا إشارتنا
وأكثر رسلنا الحدق

(١) نقلا عن كتاب «الأوراق – قسم أولاد الخلفاء» لأبي بكر الصولي.

لأن الكتـــــب قـــــد تقـــــرا
ولـــــيس برســـــلنا نثـــــق[1]

وليست هناك أسباب أوجه من الأسباب التي أوضحتها عُليّة في تعليل التراسل بإشارات العين الرامزة الموحية، ولا شك أن عين العاشق وسط جموع الناس وهي تشع وتنطفئ، وتتكلم وتنصت، وتتحرك يُمنة ويُسرة تحت جفن يهتز ويسكن، ويعلو ويتراخى، لابد أن تقول شيئًا يود الآخر أن يعرفه، وحسبهم من إشارات العين التي خلصتهم من الوسطاء، وملأت أوقاتهم، وجددت حواراتهم الصادقة، وجعلت الواحد منهم يغيب في صاحبه وهما بين الناس.

حرب العيون:

وعين المرأة التي تغازل الرجل، وتظهر له البشاشة، وتستميله، قادرة أيضا على وقفه عند حد معين، وصده بنظرات حادة صارمة، يفهم منها عدم التمادي والاسترسال. يقول صلاح خليل بن أيبك الصفدي:

(١) نقلا عن كتاب: «أشعار النساء» للإمام السيوطي.

حمى ثغره عني بسيف لحاظه
وحتام يحمي ريقه وهو بارد

والمرأة الجميلة الآسرة الحصان، ليست صيدًا سهلًا لمن تروقه، فإذا حاول، دافعت عنها ألحاظها وجفونها، بالنظر شذرًا، وبالجفن منقلبا، ويقول ابن سليمان الإربلي:

وآسمر يحكي السمهريّ قوامُه
يطاعن عنه لحظه وغمودُه[1]

ولا تقاوم الألحاظ من يتحرش بها على غير رضاها فحسب، وإنما تحذر محبها من فعل شيء عواقبه غير مأمونة، وتنهاه عن إتمامه، والتحذير إيقاف مجرى سلوك، وتعبير عن قلب متفرق عاثت فيه الهواجس، تقول عائشة تيمور:

بالجفن سقم، وبالأهداب إيماء
وفي اللواحظ تحذير وإغراء[2]

والسيدة عائشة وهي تذكر أدوار العين لا يفوتها التنبيه على التحذير؛ لأنه شديد الالتصاق بالحب المختلس.

(١) ابن سعيد المغربي «المقتطف من أزاهر الطرف».

(٢) عائشة التيمورية: ديوانها.

والحب قد يعتريه ذبول واصفرار ، ويخبو شعاعه ، وتتساقط أوراقه النضر، والمحب لا يحركه إلى محبوبه ما كان يحركه، من عذوبة وسحر ورقة ومناجاة ، ويلجمه الصمت، فلا ينشد، ويداخله النسيان ، فإذا نظرت المحبوبة إلى محبها، فكأنها نظرت بقايا أطلال وأظهرت الملال . يقول جلال الدين بن خطيب داريا:

شهدت جفون معذبي بملاله
مني وأن وداده تكليف
لكنني لم أنأ عنه لأنه
خبر رواه الجفن وهو ضعيف[1]

وكما تتعمد العين بث الهوى، فإنها تتعمد أحيانًا عدم بثه، ربما لرد اعتبار، أي أن أحدهما أهمل الآخر ولم يصله بنظرات الحب، فتعمد الآخر عدم إعارته اهتمامه ليخلى نفسه من هموم ألمت به، أو ربما يكون ذلك تقاة لرقباء كاشحين ينصبون لهما ،للإيقاع بهما ، أو ربما لأسباب أخرى. ولكن انظر إلى قدرة العين على إخلاء نظرتها من أي حب وهي تنظر إلى محبوبها.

(١) نقلا عن كتاب «تزيين الأسواق» ، مصدر سابق.

وكان بين فضل الشاعرة، وبين الشاعر سعيد بن حميد وداد ومراسلات، فزارها يومًا وبصحبته «بنان»، وكانت تعرفه جيدًا، فأولت «بنان» رعايتها وأهملت «سعيد»، فغضب نتيجة ذلك، فكتبت تسترضيه وتبين أنها أبدت مودتها إلى «بنان» خشية القيل والقال، وأظهرت أنه في الحقيقة تخلو له «بالبث والوجد»، فكتب إليها:

تنامين عن ليلى وأسهره وحدي
وأنهي جفوني أن تبثك ما عندي
فإن كنت لا تدرين ما قد فعلته
بنا فانظري ماذا على قاتل العمد[1]

وما يعنينا أن العين تستطيع إخفاء هواها عمن تهواه، وتسبب له الهواجس، وتطفئ شعلاته المتقدة، وتلجئه إلى شرح حالته، والتراجع والاعتذار، وإن كان منطق فضل الشاعرة لائحًا مقبولًا.

وتواعد المحبين للقاء بعضهما البعض، مما هو مهم في تطوير العلاقة، وبث الشوق، وتغيير إيقاع الحياة، والبوح بما يستكشفه العاشق في نفسه زمن الغياب، وينقله إلى الآخر،

(١) الأغاني.

وإظهار اللهفة واللوعة والحنين، وما إلى ذلك. ولابد للّقاء البهيج من تمهيد وترتيب.

وهناك من العشاق، كما ذكرنا سلفا، من يرتاب في الرسل، ويخشى تسرب نبأ الاجتماع السري المرتقب. وقد تسنح الفرصة لعاشقين في حضور جمع من الناس، فتتعامل العيون، وتتداخل النظرات، وقبل أن تنفضّ الجلسة، يكون العاشقان قد تواعدا. وهذا هو ابن المعتز العباسي يتمهر في الحصول على مواعيد بالنظر، دون أن تعترضه عقبة في فهم الألحاظ الواعدة، يقول:

لاحظته بالهوى حتى استقاد له
طوعا وأسلفني الميعاد بالنظر
وجاء في قميص الليل مستترا
يستعجل الخَطوَ من خوف ومن حذر[1]

ويقول أيضًا:

مازال ينجزني مواعد عينه
فمه وأحسب ريقه من خمرة[2]

(١) ابن المعتز «ديوانه».

(٢) ابن المعتز «ديوانه».

ويقول كذلك:

وجـاوب اللحـظ منـه لحـظ عاشـقه
وجـرر الوعـد بـين اليـأس والطمـع[1]

وكـل هـذه الإشـارات التـي ذكرناهـا، الغـرض منهـا سريـة الحب، وعزلة المحبين عن الناس، حتى وإن كـانوا في وسـطهم، وأسباب ذلـك وجيهـة وكثيرة ، منهـا مـداراة الحـب المختلس. ويلاحـظ أن كـل عاشـق يأخـذ بيـد صـاحبه لأنـه يحبـه، ولأن التعـرف عـلى عـشقه يفـضح الاثنين، فهـما عـلى قـدر سـعادتهما روحان معذبان، ولا ريب أن المحبة شاقة ومكلفة ، لما فيهـا مـن أشواق كاوية، ووسـاوس وأوجـال، لـذلك فقـول محمـود بيرم التونسي أن العاشق أو المعشوق إذا عـشق لا يخـشى رقيبًاغريـب وغير واقعي يقول:

قـــوللي ولا تخبـــيش يـــا زيـــن
إش تقـــول العـــين للعـــين
لمـــا العـــين تـــشوف حبيـــب
تقـــول ولا تخـــشاش رقيـــب
بعيـــد وصـــالك ولا قريـــب

(١) نقلا عن : «كتاب الأوراق – قسم أشعار أولاد الخلفاء» لأبي بكر الصول.

ويـــوم الوعـــدة نـــشوفك فـــين
هـــــادا والله كـــــلام العـــــين
والله كـــــلام العـــــين للعـــــين

وهناك إشارات كثيرة أخرى ضربنا عنها صفحا لأن ما أوردناه يمثلها.

تفسير الإشارات:

ولو راجعنا مختلف الإيماءات والإشارات، لألفينا معانيها ودلالاتها تحقق مطالب الحب، وتفسر بعضا من طقوسه، ولا شك في صدق إشارات العين؛ لأنها صورة من النفس، والمرء يستطيع أن يختار الكلام الذي يقوله حتى ولو كان كذبًا منسقًا، ولكنه لا يختار الأحاسيس التي تبديها عينه.

ولا أدري كيف نفهم إشارات العين؟ فهل هذا راجع إلى ذكاء فينا؟ أو إلى وضوح دلالة الإشارة؟ لا شك في أن الإشارة بالرغم من عمقها وغموضها واضحة الدلالة للشخص الموجهة إليه، ولكن ليس معنى هذا أن شخصًا آخر لو شاهدها يدرك المعنى المراد، فإن غاية ما يعرفه أن فلانا نظر إلى فلانة أو العكس، دون أن يفطن إلى شيء، وهذا أساس اللحن، وهو أن يتخاطب شخصان بكلام لا يفهمه من حولهما. نضيف إلى ذلك أن إشارات العين رسائل برقية قلما يلحظها أحد.

والعاشق الحساس الذي ألف النظر إلى عين صاحبته، وتفهم أسرارها لما بينه وبينها من عواطف ومواقف، يستقبل الإشارات ويترجمها فورًا ثم يقوم بإرسال الرد عليها حالا، فيتفق المحبان على شيء دون أن يلاحظ ذلك جليس بينهما، أو رقيب يتابعهما.

ومما يجب التهدي إليه أن بين الصاحبين موضوعات يتناقشان فيها، إضافة إلى أن كلا منهما يعرف ما يشغل بال الآخر، وفي الغالب تكون الإشارات متعلقة بهذا، حسب التدرج الزمني، فإشارات العين في أول العلاقة غيرها بعد تطور العلائق.

وقد نجتهد في هذا الأمر ونصيب، ولكن الإصابة قاصرة، وترد في حدود ضيقة، إلا إذا أفصح أحدهما عما طواه في قلبه، على نحو ما ذكرنا في الأبيات السابقة.

والإشارات الصادرة عن الألحاظ قد تكون خاطفة أو متأنية، مفهومة معلومة أو تحتاج إلى تكرير، كافية وافية أو لابد من أن تسندها إيماءة وغمزة عين، حادة أو فاترة، هذا مع توسيع الأحداق وتضييقها، وإسدال الأجفان والأهداب أو رفعها، والنظر بالمواجهة أو بدحرجة بؤبؤ العين، وغير ذلك حسبما يحتاج إليه التعبير.

وفي كتاب «طوق الحمامة في الألفة والألاف» تفسير إشارات العين منها.

«فالإشارة بمؤخرة العين الواحدة نهي عن الأمر، وتفتيرها إعلام بالقبول، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف، وكسر نظرها آية الفرح. والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه، والإشارة الخفية بمؤخرة العينين كلتيهما سؤال، وقلب الحدقة من وسط العين إلى الموق بسرعة شاهد المنع، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهي عام، وسائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة»[1].

وتبين مي زيادة أن اتساع سواد العين دلالة الحب، وانكماش سوادها يعني الكره. وتقول عن العين: «وتلك التي يتسع سوادها أمام من تحب، وينكمش لدى من تكره»[2].

ويقول محمد سامي البارودي:

تقلب العين دليل على

(١) كتاب «طوق الحمامة في الألفة والألاف» المنسوب لابن حزم.

(٢) مي زيادة «ظلمات وأشعة»

مـــا أضـــمر الإنـــسان في قلبـــه

ويفسر أبو فراس الحمداني تقلب العيون بقوله:

يـدل عـلى مـا في الـضمير مـن الفتـى

تقلـب عينيـه إلى شـخص مـن يهـوى

وهـذه الكلـمات تبـدو كالملاحظـات العلميـة التـي اكتـسبها أصحابها من تجاربهم بعد نظر عميق في العين أثناء تحركها أو تقلبها وإرسال إشاراتها ، فقد بحثوا في اختلاف أوضاع العين وربطوا ذلك بالقلب ليتسق كلامهم مع الحقائق، وما قالوه يأتي بمنزلة تفسير لشخصية العين الغامضة، ويتضح من مختلف أقوالهم أعماق العين، وأحوالها ، وما تخفيه إشاراتها، وما يجيش بها، بيد إن هذا الجانب النظري يكمله جانب تطبيقي، باح فيه العشاق بمعاني الإشارات وذكروها في شعرهم على نحو ما يقول عمر بن أبي ربيعة شاعر الغزل:

أشـارت بطـرف العـين خفيـة أهلهـا

إشـــارة محـــزون ولم تـــتكلم

فأيقنـت أن الطـرف قـد قـال مرحبـا

وأهـلا وسـهلا بالحبيـب المتـيم[1]

(١) نقلا عن كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني.

وإذا كانت إشارات عين صاحبة عمر بن أبي ربيعة تعني الترحيب فحسب ، فإن شاعرًا آخر نظر إلى صاحبته ، فكان لهذه النظرة أثرها البليغ في نفسها وخديها، ربما احمر خداها خجلًا أو فرحًا:

نظـــرت إليهـــا نظـــرة فتحـــيرت
دقـــائق فكـــري في بـــديع صـــفاتها
فـــأوحى إليهـــا الطـــرف أني أحبهـــا
فـــــائر ذاك الـــــوحي في وجناتهـــــا

فأشعة العيون ، وطلسّماتها الخفية، سيم يعرفه العشاق، وإشاراتها لمن ألفها، كلام أو شبه كلام، لذلك في «طوق الحمامة»: « أن العين تنوب عن الرسل» ، وكل من عرف الهوى تخاطب بلغة العيون، يقول أحمد شوقي:

وتعطلـــت لغـــة الكـــلام وخاطبـــت
عينـــيّ في لغـــة الهـــوى عينـــاك

وتبين العين التي جاءت في «طوق الحمامة..» وأقوال شعراء آخرين ، أن لغتها مجرد لغة سرية فيها نعم ولا ، وحب وكره، وتحذير ولوم ، وليست إشاراتها اتفاقا ما بين اثنين، فلا المحب يستغرق انثاه، ولا هي تستغرقه، ولا أعني أن أحدهما أو الاثنين يصطنعان الخلاف بينهما، وإنما أعني أن الإشارات

تعكس الحب أو الحقد حسب ما تنطوي عليه النفس، يقول شاعر:

تبدي لك العين ما في نفس صاحبها
من الشناءة أو ودٍّ إذا كانا
إن البغيض له عين يصد بها
لا يستطيع لها في الصدر كتمانا
وعين ذي الود ما تنفك مقبلة
ترى لها محجرا بشّاً وإنسانا[1]

ولأن النفس تسيطر على العين وتوجهها ، فإن إشاراتها فعل نفسي، ولأن من الأفعال ما يروع، فإن بعض الإشارات تأتي جافية قاسية، وبخاصة إذا كرهت النفس شخصًا، وقد يتحرش رجل بامرأة ، ولا تستجيب له فتقلب له عينيها كرها وتكسر له جفنها استنكارا واستخفافا، وتنازله بأسلحة مقلتيها، ويؤثر كل هذا فيه فيقول فيها:

يا له من مجاهد في محبيه
ينادي بمقلتيه النزالا

(١) نقلا عن كتاب «الصداقة والصديق» لأبي حيان التوحيدي.

لم يقاتـــل إلا بمنكـــسرات
ومراض من الجفون كسالا[1]

أسرار العيون:

وقد انشغل الأدباء بالعيون منذ القدم ، وتواصلت أقوالهم فيها، ولم يعد يكفي القول: إن العين جميلة أو واسعة، فرحة أو مستاءة، وإنما تجاوز الأمر ذلك إلى تحليل النظرة، وفهم معطياتها، وإيماءاتها ، وما توحيه من خواطر، ومدى إثارتها للإحساسات الهامدة، وسبب تغيرها وهي تلاحق الحياة في صيرورتها، ومدى قدرتها على استطلاع الخبايا المستترة .

ولمحمود بيرم التونسي زجل عن العيون يذكر فيه أنواعا منها منه ما يفطن فيه إلى سيمها، وذلك من خلال خواطر أو حكايات أو شبه حكايات قصيرة جدا ، ترد في عبارات قليلة، يبين فيها أسباب نفور العين أو إقبالها على من يلقاها من الناس، كما يتناول أشكالا أخرى من العيون الحائرة، والمحيرة الغامضة يقول:

(١) نقلا عن كتاب «المقتطف من أزاهر الطرف» لابن سعيد المغربي.

من العيون يا سلام سلم
شوف واتعلم
تحت البراقع تتكلم
والدنيا نهار
وعيون تقولك أنا عارفاك
والنبي ما أنساك
من يوم ما شفتك م الشباك
يا جدع يا صغار
وعيون تقولك امشي يا واد
أنا أم ولاد
وعيون تقولك أنا عندي ميعاد
ويا السمسار
وعيون بسر الحب تبوح
كدا بالمفتوح
وتعرف القلب المجروح
ما عليهش ستار
وعيون تسبل فوق الخد
دي جدف جد
وعمرها ما تكلم حد

عيــــــون أحــــــرار

***

وغيـــون مـــا تعـــرف زعلانـــه
أو فرحانـــــــــــــــــه
صـــباح مـــسا أهـــي بهتانـــه
صـــــاحبة أفكـــــار

***

وعيـــون لهـــا ضـــحكة ف وشـــك
بـــــس تغـــــشك
وتـــبص مـــن تحـــت الـيـــشمك
تلقـــــــى المنقـــــار

***

وعيـــون كـــدا يـبقم ســـاهتين
صـــــفر وبـــــاهتين
بالـــشكل دا عيـــون الخـــاينين
تــــضرب بـــــصفار(١)

بهذا الذوق الشعبي عبر بيرم التونسي عن ألوان من العيون الكذابة والصادقة، وأنطقها بما تنطوي عليه من فحش وغش،

(١) بيرم التونسي - الأعمال الكاملة.

واحتشام وإباحة ، ووفاء وخيانة ، ورسم بعبارته الدارجة ما دار بين العيون من حوار سريع كشف عن المضمون ، وأفصح عن الإشارات، وصوّر جو كل عين، وهي تتخاطب مع من يخاطبها بكلمات قليلة دالة، وعلل استجابة العيون أو عدم استجاباتها للإشارات التي تتلقاها بما يقنع، فهناك المرأة التي تعصى فتى يراودها لأنها متزوجة ولها أولاد ، وتتمسك بالسار وتتجنب الضار ، وتؤكد قيمة الزواج ، وتكتفي بما فيها من خير ومتعة ، وغيرها التي لا تقبل نظرة من أحد ، وترفض العبث والغزل، والعيون الخبيثة المتلونة ، وغيرها.

وإذا كان زجل بيرم التونسي هذا يصح أن يكون موضوعًا في علم الملاحن، فإنه يدخل أيضا في الدرس الاجتماعي لما فيه من صور اجتماعية متنوعة.

وهناك فارق كبير بين لحن الزهر ولغة العين.

فالأول يغلب على دلالاته الاصطلاح والاتفاق بين المحبين، وليس بالضرورة أن يتفق معنى الزهرة في سيم العشق مع شكلها أو جوهرها ، وقد يلجؤون إلى اللف والدوران ، مثل دلالة نبات السحلب على الفتاة المخدّرة أو الخدر البكر

الحسناء، والصلة بينهما هي أن السحلب أبيض شفاف، والفتاة البكر بيضاء شفافة لم يقربها أحد ، أي أنهم أطلقوا صفة حسية على مضمون معنوي، وليس كل عاشق سيفهم السحلب على نحو ما شرحنا، ودلالة الشيء هنا تأتي بعد لف ودوران.

كذلك يتسلل إلى المتخاطبين بلغة الزهور تشاؤم وتفاؤل على نحو ما ذكرنا.

أما لغة العيون فإنها حالة نفسية تتلقاها العين، والعين صادقة في تعبيرها حين تصور الانفعالات الباطنة ، وحتى إذا حاولت الإخفاء والتمويه والظهور بغير الحقيقة ، فإن هذا يبدو عليها ، وفي حالة ما يستبهم علينا فهم إشارة العين، فإن هذا يعد ثغرة في ذكائنا ، وقصورا في قدرتنا على اللمح، وليس تضليلا من الألحاظ ، وهناك عيون مُضلّلة ولكن هذا ظاهر فيها.

وعلى هذا فإن اللحن الكتابي يعتمد على الفطنة ، والمترجم يستند إلى قواعد ، وسيم الزهر قوامه الاصطلاح والتواطؤ، أما إشارة العين فهي وحدها التي تعرب عن داخل الإنسان، وتعبر عن انفعاله ، ولا تحتاج إلى اصطلاح أو قواعد أو تورية أو كناية.

الحاجب:

وللحواجب لحن، ودور في سرّية الحب وتغطيته ، فإن تحريكها أو ترقصيها له دلالات في الحب يعرفها المغرمون، ونظرًا لارتباطها العضوي بالعيون والجفون ، فإن حركة أي عضو منها له دور في تحريك العضوين الآخرين ، وقد تشترك جميعا في أداء معنى معين، ولا ريب في أن غمز العيون ، وتراخي الجفون تعمل على كسر الحواجب، وكسر الحواجب لون من ألوان التعبير عن الانفعال الداخلي.

وتشكل أحوال النفس في المواقف اللاهفة ، والأوضاع الهانئة، ملامح الحاجبين ، ففي الأحوال العادية هما معتدلان، وفي غيرها تتغير صورهما، فرفعهما دليل الدهشة والتعجب، وزويهما أو ضم أحدهما إلى الآخر علامة الغضب والاستياء، وانكماشهما يعني عدم القبول ، وتقوسهما دليل على الاهتمام والتطلع ، والإيماء بالحاجب إثارة تُوقع بالقلب الهوى وكسر الحاجب فيه تحية ورضا، وفي حركات الحاجب دلائل يفهمها الذي يتعامل معه.

وليست هذه الدلالات قاطعة ، وكأنها كلمات معجمية. يأتي فيها المعنى قرين الكلمة ، ولا يسعه معنى آخر يدخل في دائرته،

فقد يكون رفع الحاجب دلالة على التطلع، وبخاصة إذا استبان للمرء أمر خفي، وقد يكون تقوسه يعني الاهتمام، فكل هذه الأشياء تعتمد على الحالة الداخلية، وتستند إلى الموضوع الذي تتلاعب فيه حواجب العاشقين، وبذلك يعرف الواحد منهما منطق الحاجبين، أو كما يقول ابن المغربي:

عُلّمت منطق حاجبيه
والبين ينشر رايتيه[1]

فمن من حركات الحاجبين عرف العاشق أن الفراق واقع لا محالة.

ونضيف إلى هذا أن الحاجبين بمفردهما لا يقومان بتبليغ الطرف الآخر المعنى المراد كاملا واضحًا، وإنما كل أعضاء الوجه تشترك معهما في توصيل دلالة ما، ومن يعنيه الأمر يلمح هيئة الوجه بما في ذلك غمز العين وحركة الجفن، وهز الرأس، ومط الشفاه وغير ذلك من أعضاء تشارك الحاجبين في تبليغ المقصود، والعاشق الذي يرغب في توصيل رسالة لا يشترط أن يؤديها بالحاجب فحسب، وإنما بالوسائل المتاحة، وقد تكون هذه الوسائل عديدة على نحو ما قال شاعر:

(١) نقلا عن كتاب «ذم الهوى» لابن الجوزي.

إشـــارة ألحـــاظ وغمـــز حواجـــب
وتكـــسير أجفـــان وكَـــفّ تُـــسلم[1]

وقـد احتفـل العـشاق الـشعراء بالحواجـب، أيـما احتفـال، وسخّروا بيانهم وبلاغتهم في إظهار جمالها، وأثرها في النفـوس، ودورهـا في سرّيـة الحـب، وجعلوهـا تـتراقص وتتغـامز في أناشيدهم، وتعبر عـن أطـوار الحب في أشعارهم، والعاشـق لا يعتقد أن العين فحسب هي التي أوقعته في الحب، ومنحت قلبه الدفء، وإنما الحاجب أيضا عندما أثاره بإيمائه:

ولمـــا رآني العـــاذلون متـــيما
أهـيم بمـن أهـوى وعقـلي ذاهـب
رقـوا لي وقـالوا: كنـت بـالأمس عـاقلا
أصـابتك عـين، قلـت: وحاجـب[2]

ولأن الحاجب مقوس، فقد شبهوه بالقوس الذي تنطلق منه السهام فتصيب وتميت، ورأوا أن سهام الألحاظ النافذة تنطلق من أقواس الحواجب القاذفة، فتخترق القلب إلى الأعماق:

وترسل سهم اللحظ من قوس حاجب

(١) نقلا عن ألف ليلة، ليلة ٣٤٦ – مصدر سابق.
(٢) نقلا عن سفينة الملك – مصدر سابق.

يصيب ولم يخطئ ولو كان من بعد[1]

ويكثر في الشعر تشبيه الحاجب بالنون ن ، ولابد أنهم يقصدون النون المقلوبة إلى أسفل فتكون أشبه بالحاجب، وهذا يدل على شدة عنايتهم به، لأنه يساهم في صياغة جمال وجه المرأة، ولا شك أن الحواجب الزجاء مثل التيجان فوق العيون الجعداء.

حاجبك النون التي حررت
ومقلة كالصاد صنع الودود[2]

وقد تفننت عائشة تيمور في الحديث عن الحاجب، وجعلت من الحاجب نونا ، ومن العذار، وهو جانب الوجه لاما، ومن الخالين اللذين فوق الخدين تاءً، أي : ن ل ت = نلت ، تقول:

وبالحواجب نون والعذار به
لام وخالاه مع وجنتيه تاء[3]

وادخلوا الحاجب قصور الحكم، وجعلوه من باب التورية،

(١) نقلا عن ألف ليلة ، ليلة ٥١٠.
وقد يشبه الشعراء اللحظ بالنبل ، والحاجب بالقوس مثل:
كأن ألحاظها نبل وحاجبها .. قوس على أنه بالموت مقرون.
(٢) نقلا عن ألف ليلة ، ليلة ٣٧٠.
(٣) عائشة تيمور: ديوانها.

يلازم الأكاسرة والقياصرة، وقرنوا بينه وبين حاجب السلطان، يقول الشريف الغرطاني عن الحاجب:

فـــإن يكُـــن الجـــمالُ حبـــاك مُلكـــا
وأيـــــد ناظريـــــك بحـــــاجبين
فـــما أرضى لـــمُلكك أن كـــسرى
وقيـــصر في مقـــام الحـــاجبين

وقال الشارح : الحاجب يقوم على تنظيم الصلة بين الحاكم وبين الناس وخطته الحجابة، وهذا من حسن التواري[1].

وإذا كان الحاجب قام بدوره في السيم ببعض حركاته التي ذكرناها، فإن تجارب الشعراء العشاق مع الحاجب أكثر من أن تستقصي، وقد أدركوا أنه لا يستعصى عليه أن يختلج بما يحسه صاحبه ويفصح عنه، ويقدر على أسر عاشقة وخلب نفسه، ويأمر فيه وينهى، وقد عبر عن هذا شاعر فقال:

قـــسما بوجنتيـــه وباسِـــم ثغـــره
وبِأسْـــهُم قـــد راشـــها مـــن منخـــره
وبحاجـــب حجـــب الكـــرى عـــن صـــبه

(١) الشريف الغرناطي: «ديوان جهد المقل» صنعه د. أيمن محمد ميدان.

وســـطا عليـــه بنهيـــه وبـــأمره[1]

وشاعر عاشق آخر تعامل مع حاجب، وشكا من ظلمه، وتقلبه معه، وتعكير الأجواء بينهما، وعدم لياقة تصرفاته وحسن استقباله، يقول:

لـــك يـــا أمـــيري في الملاحـــة نـــاظر
يـــسطو عـــليّ وحاجـــب لا ينـــصف[2]

أما شاعرتنا التيمورية فإن تلاعب الحاجب وإيماءه إليها أذابها، وعمل على نقلها من العالم الأرضي المسكون إلى عوام الخيال والأحلام لتحلق مع الأطياف، وماذا نفعل وقد ضاعت وتلاشت من إيماء حاجب لقوة تأثيره في عواطفها، تقول:

أضـــاعني عنـــدما أومـــا بحاجبـــه
وطرفـــه مـــن بـــديع الـــسحر مكحـــول

ويقوم سيم العين والحاجب على الحركة والغمزة، والإشارة والإيماءة.. وهذه يسرى فيها الكلام السِّري المراد توصيله، وهي طريقة في الخطاب تتميز بسهولة الأداء، وسرعة الإرسال،

(١) ألف ليلة، ليلة ٧٢.

(٢) ألف ليلة، ليلة ٨١.

وتناسب محبين يحيط بهم كاشحون ووشاة، يبحثون عن قول أو فعل يثير الاشتباه، فالعشاق في حضور الناس ظاهرون، ولكن كأنهم يلبسون طاقيات الإخفاء، أو كأنهم من العوالم الخفية، يجلسون جلسة هادئة ، ويتحدثون بلغتهم ، دون احتمال لسوء العواقب، لذلك يقول شاعر، والأغلب شاعرة:

حواجبنا تقضي الحوائج بيننا
فنحن سكوت والهوى يتكلم

ومن الحكايات القديمة التي وردت في أكثر من كتاب، وتتعلق بالحاجب، وفيها افتتن المأمون بجارية «من جواري أبيه الرشيد، وكان يكتم أمره، وكانت من خواص الخدمة، فبينا هي يوما تصب على يديه، وقد التفتت، إذ أشار لها المأمون بقبلة، فغمزته مشيرة بحاجبها إلى أنها خائفة، ففترت في صب الماء، ففطن الرشيد، فحلف إن لم تخبره ليفتكن بها، فأعلمته، فنظر إلى المأمون وكاد أن يقضي من الخوف، فضمه وسكن ما به ثم قال له: أتحبها؟ قال: نعم... ثم قال له: أنشد في هذا فأنشد:

ظبي كنّيت بطرفي
عن الضمير إليه
قبلته من بعيد

فاعتـــــل مـــــن شـــــفتيه
ورد أخبـــــــــــــث ردّ[1]
بالكـــــنز مـــــن حاجبيـــــه
فـــــما برحـــــت مكـــــاني
حتـــــى قـــــدرت عليـــــه

أشياء أخرى:

ولا تقتصر لغات الحب السرية على ما ذكرنا، وإنما تمتد إلى أعضاء أخرى من الجسم، فكل ما يمكن تحريكه من أعضاء البدن ينطق بما يهفو إليه العاشق، وحتى الإنسان في العادة والمألوف لا يتكلم بلسانه فحسب، وإنما يشاركه جسده أثناء الكلام، والظاهر أن أقوال اللسان غير كافية في إيضاح قضية من القضايا، فإننا نرى الذراع يتحرك، والحواجب تعلو وتنخفض، والأكتاف ترتفع وتسفل، أي أن ما يقوله اللسان يمثله الجسم بالحركات، إما ليزيده إيضاحًا، وإما لأنه غير كاف، فيضيف إليه الجسم بحركاته ما نقص منه.

(١) في رواية أخرى «أجل رد» والحكاية منقولة من كتاب «تزيين الأسواق» لداود الأنطاكي وموجودة في كتب أخرى.

غمز اليد:

وإذا كان الناس يهاجمون المغرمين بشراسة وقوة، فإن العاشقين يقاومون في رقة وهدوء ، بنظرة ، أو بزهرة، أو بغمز يد، وجميعها أشياء يصعب ضبطها، أو إقامة حجج عليها، فمصافحة رجل لامرأة أو العكس من الأمور العادية، ولكن إذا كانت القلوب مشتعلة، فإن سلام اليد، وغمز الكف فيه من الدلالات ما يفهمه العاشق، بل هناك من يذهب إلى أن الحب عبارة عن نظرة وغمز يد يقول الخليفة المأمون:

ما الحب إلا نظرة وغمز كف وعضد[1]

وغمز اليد يكون في أول التعارف مع الإعجاب، وتنبيه الغامز للمعشوق بالميل إليه، وعلى من وقع عليه الغمز أن يرد بالغمز أو بعدمه ليتحدد الموقف بينهما ، وربما يأتي الغمز بمعنى التذكير بشيء، أو يكون لتجديد الوصل بعد صد، ولكنه في معظم الأحوال يأتي بمعنى الشوق، وتوثيق العلائق ؛ لأن الغامز ومن وقع عليه الغمز ألفا غمز اليد. يقول الشاعر:

وإن أنس لا أنس ذاك الخضوع
وفيض الدموع وغمز اليد

(١) نقلا عن «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» لابن القيم الجوزية.

وهناك نسوة أديمها ناعم، وجلد كفها رهيف ، بحيث أن كفها الرقيقة الملمس لا تحتمل الغمز فيها، يقول أبو نواس:

وصافحه كفي فآلم كفه
فمن غمز كفي في أنامله عقر

والبنان من اليد ، أو من الكف، وله دوره في الإشارة والإفهام، فالإصبع المتحرك في الهواء في اتجاهات مختلفة ، وبخاصة السبابة ، له دلالات وفقا لانتصابه وانحنائه ، وذهابه وإيابه، وهذه الدلالات مفهومة لدى الطرف الآخر، يقول الشاعر:

تشير لنا عما تقول بطرفها
وأومي إليها بالبنان فتفهم

الفم:

وللفم لغة سرية ، ومن أهم أدواره وأسراره ، تقديم الوعود، التي تجدد الشوق ، وتنمي العشق ، والتي ينتظرها الطرف الآخر بتلهف، ويترقب تحقيقها، والعاشق أو العاشقة عندما تعطي الوعد ، وتحدد الوقت، كأنها تمد الحبل بالعافية ،

والطرف الموعود يشعر بأن صاحبه منحه السعادة، لما سينتج عن الوعد من الابتهاج والقرب.

ولكن هناك من يعد ولا ينجز موعده، وكأنها مواعيد عرقوب، يقول الشاعر:

وموعدي بقبلة أرشفها من مبسمه
سوّف بي ولم يزل يوعد لكن بفمه

وللفم إشارات مثل إشارات العين، وهي في تعريف شاعر إحدى أركان الحب وفي هذا يقول:

إشارة أفواه وغمز حواجب
وتكسير أجفان وكف تسلم

وهناك أشعار فيها سيم للفم، ضقنا بها، وضربنا عنها صفحا.

واللغات السرية للحب أكثر من أن تُحصى، فإنها تمتد إلى كل ما يعبر عنه الإنسان بأعضاء جسده عن قصد، ويؤديه في الستر، ويتناول به مختلف أحوال الحب من وصل وهجر، وفراق ولوعة وبهجة.. وغير ذلك.

obeikan.com

وكثرة اللغات السرية أتاحت للعشّاق قدرًا أكبر من الحرية، فإذا كانوا ممنوعين من الحديث الصريح بين الناس عما تختلج به قلوبهم، فإن أفواههم الصامتة تعبر، وشفاههم في حركة خاطفة تعطف، وأياديهم توضح، وابتساماتهم على مختلف أنواعها تؤدى، وأصابع أيديهم تشير، والجفون الهامسة[1] جارحة، وهز الأكتاف يظهر الاستخفاف، وحركة الرؤوس ترفض وتقبّل، حتى القدم، إذا عبثت بالقدم فإنها تعني لونا من الغزل.

والعاشق ليس مقيدًا بلغة واحدة من لغات الحب، أو اصطلاحاتها في كل مجال، وإنما هو يتحدث باللغة التي تظهر مكنون نفسه، أو باللغة المناسبة له حسب الظروف التي يجد نفسه فيها، أو يتحدث كل هذه اللغات لتوصيل ما يريد، وتخليص نفسه من المهالك والألسنة الحادة.

وهذه اللغات تعمل على تنمية الحب، وإطالة عمره، وإيضاح غرضه، وزيادة نصيب العشاق منه، ومحو الحب من النفوس غير ممكن.

(١) همس الجفون اسم ديوان لميخائيل نعيمة.

وكثير من هذا الحب السري تنتج عنه علاقات وطيدة مستديمة بالرباط المقدس، إذ ليس كله باطلا، وأهم ما أفاده أهل الهوى من اللغات السرية هو الحد من مطاردة الناس لهم وإبعاد الحواجز المنصوبة بينهم وبين محبيهم على قدر الإمكان.

obeikan.com

سيم المناديل

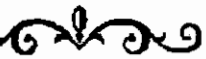

تعدد ألوان السيم في الحب يدل على تمسك العشاق بالعشق وراء ستار، لا لأنهم يقتدون بمن قبلهم، ولكن لأن السرّية هي طبيعته، وهذا هو ما يضفى عليه طابع السحر، ويدفع للمغامرة فيه، وفي كل سيم مستحدث تتجدد الطرائق، وتبتكر الأفكار لتأمين الحب، وسلّ الخوف من النفس، ويتمادى العاشق في الحذر، حتى لا يذاع عن حبه خبر.

وفي سيم الزهور تتغير الدلالة حسب نوع الزهرة، وفي إشارات العيون تتغير المعاني من إشارة لأخرى، أما في لحن المناديل فيكون المعنى المراد حسب وضع المرأة لمنديلها على أعضاء جسدها، فوضعها له على كتفها له دلالة ، وعقده حول خصرها ، له دلالة مختلفة، وهناك المنديل المطوي، والملفوف ، والذي تمسكه المرأة بإحكام ، والذي تسقطه عمدًا على الأرض، والذي تتلاعب به ، والمنديل في كل وضع من هذه الأوضاع له دلالة ومغزى.

وفي سيم الزهور قد يتبادل الرجل والمرأة الزهرات المختلفة التي تعبر عن المعاني المراد توصيلها ، وقد يكون هناك حوار بين النساء والرجال بإشارات العين في محفل، فتتلاقى نظراتهم وتتداخل، وتعبر عما في الصدور، أما مع المناديل فإن المرأة هي التي تعبر عن المرغوب فيه بمفردها، والرجل يشخص إلى أدائها، ولا يفعل مثل فعلها، وإذا وضعت المنديل قرب عينها، فلا يضع الرجل منديلا مثلها قرب أذنه.

إنه يتابع فحسب، وإذا كان هو المعنِى فعليه أن يتصرف بالأسلوب الذي يناسبه، لذلك أعتقد أن سيم المناديل من صنع النساء.

لغة المناديل:

وقد نشرت مجلة «سركيس» لحن المنديل تحت عنوان «لغة المناديل» وقدمت لها بقولها:

«للمحبين لغات يتفاهمون بها بشكل إشارات واصطلاحات لا يفهمها سواهم، منها لغة الزهور ، ولغة المناديل ، وهي كثيرة الاستعمال في فصل الصيف» ثم أوردت لغة المناديل على هذا النحو:

«وإذا أمرّت الفتاة منديلها على شفتها ، فمعنى ذلك كاتبني .

إذ أمرّته على عينها – إني حزينة.

إذا أمرّته بيدها اليسرى – أنا أكرهك.

إذا سمحت بسقوطه على الأرض – الأدق أن نكون أصدقاء.

إذا وضعته على خدها الأيمن – نعم، وعلى الأيسر – لا.

إذا أمرّته على كفتها – اتبعني.

إذا أمرّته على أذنها اليمنى – أنت غير مخلص.

إذا أمرته على اليسرى – لديّ رسالة لك.

أذا أمرته مطويا على عينيها – أريد مخاطبتك.

إذا لفّته من طرفه – انتظرني.

إذا لاكته بيدها – أنت قليل الاعتناء.

إذا لاكته بيدها اليمنى – أحب أغيرّك.

وباليسرى – لا أريد أن أعرف شيئًا عنك.

إذا عقدته على يديها – إنني لك وحدك.

إذا لعبت به – أنا مستأنسة بك.

إذا سمحت بسقوطه على جبهتها – أنا مرتابة فيك.

إذا دغدغته في يدها اليمنى – أنا لست لك.

وفي اليسرى – قلبي مخصص لك.

وفي كلتا يديها – يا خائن عرفت أنك تحب غيري.

إذا نقلته معقودًا في طرفه – قابلني غدًا.

إذا أمرّته باستواء على عينها – حياتي مشتبهة»[1].

هذا ما نشرته مجلة سركيس دون تعليق أو تعقيب، وأعفت نفسها من شرح هذا الكلام بقولها: إنها لغة لا يفهما سوى العشاق، وإنها حقا لغة مغلقة مبهمة، فكيف نفهم من إسقاط المرأة منديلها على الأرض على أنها ترغب في ودادة هادئة، وصداقة صافية، لا في حب يغلي فيه القلب، أو إذا عقدت المنديل حول خصرها فإن هذا يعني إنها زوجة، والعاشق لا يثير عاطفتها، ولا ينبه قلبها.

(١) مجلة سركيس – عدد سبتمبر وأكتوبر ١٩٢٣.

ولغة المناديل تراعى كتمان أحاسيس الأنثى لأنها سهلة الأداء، موجزة التعبير تتركز في إصعاد اليد وإنزالها وهي ممسكة بمنديل تحركه في خفة وسرعة ، دون أن يفطن أحد إلى منديل تمرره على عينها، وكأنها تمسحها به، والسيم كله ميسور الفعل، ويستوفى حديثا ظاهره غير ملحوظ، وباطنه غير معروف.

وقد حاولت فهم لغة المنديل السرية ، فوقفت عند كلمة «لاكته» ودلالتها، وإلى أي حد ناسبت الكلمة معناها ، ولعل الصواب في «لاكت» المنديل هو «لكّت، فإذا تتبعنا كل معاني «لكّت» نجدها سلبية في لغة المنديل . فالمرأة مع هذا الاصطلاح رافضة للحب، نافرة من العاشق، وحسب ما جاء عن منديلها «إذ لاكته بيدها اليمنى» فهي ترغب في إثارته و«إذا لاكته بيدها اليسرى» فهي لا ترغب في شيء يخصه، و«إذا لاكته بيديها» فهي سيئة الظن به ، وهذه الدلالات الثلاث تبين وضع المحب عندها، ولا شك أنه وضع الإنسان المهمل والمغضوب عليه، وتعبير لكّت أو لاكت يوائم حالتها النفسية الهابطة ، ولاكت المنديل أي غضنته، أو لمست أطرافه ، وأدخلت بعضها في بعض، وضغطت عليها في حالاتها الثالث، وهذا يلائم حالتها النفسية الغضبية ، فالغضب مرتبط بـ«لاكت» المنديل، ولماذا هي غاضبة؛ لأن العاشق لا شيء ، ولا تستطيع أن ترفل معه في الحب.

وتمرير المرأة منديلها على كتفها ، ودلالاته «اتبعني»، فهذا معقول، وكأنها تقوله له: ضع يدك على كتفي واتبعني، والمعنى العملي أنها تسير في الطريق وهو يتبعها بنظراته حتى تصل به إلى بر الأمان، أو إلى مكان يخلو منه إنسان يعرفهما.

أما دغدغة المنديل باليد اليمنى أو باليدين، فإنه حسب المعنى الدارج يعني ضغطه، أو الضغط عليه ولملمته ، وفي لغة المنديل تعني الدغدغة هنا الإعراض والنفار عن المحبوب، والدغدغة تعرب عن امرأة منقبضة غاضبة.

ودلالة الاستئناس على اللعب بالمنديل يمكن أن تكون مقبولة لأن اللعب عموما يدل على طرب النفس ، ويبين انتعاش الأحاسيس، وانبساط الأسارير، فإذا لعبت المرأة بالمنديل فهذا موائم لمؤانسة المحبوب لها، ومؤلف هذا الكتاب لا يوفق بهذا الكلام بين حركة المنديل ودلالته، ولكن يقرب ما أمكن التقريب بين تشكيل المنديل ومعناه، وهو لا يدري شيئًا عن القاعدة التي استند عليها ، مبتدع هذه الاصطلاحات، ولا عن كيفية صياغته لها ، ويمكن أن يكون بعضها اتفاقا بين عاشقين ، ولكن ليست كلها من باب التواطؤ، فالمرأة التي تكره رجلا يتتبعها ولا ترغب فيه،

لا يمكن أن تتفق معه على علامة ، أو وضع يعرف منه أنها لا تطيقه أو يتفق معها على شيء إذا أظهره أو أخفاه يفيد أنه يبغضها.

وسيم المنديل لا يخلو من تعاطف وجفاء، فهو يعبر عن السخط والرضا، والكيد والأنس ، ففيه الوصال «قابلني غدا» والشغف «إنني لك وحدك» واللهف «إني حزينة» والأوقات اللاذة «أنا مستأنسة بك» والخيانة «يا خائن عرفت أنك تحب غيري» والهجر «أنا أكرهك» والشك «أنا مرتابة فيك» ، ولاشك في أن كل هذا مأخوذ من تجارب المحبين، ومما جرى في الحياة من حولهم ، ومما تكوّن في أذهانهم من حكايات الحب والأحباب ، والمشاق والمكابدات التي تعرضوا لها ، وجهود عشاق الأجيال المتعاقبة في التغلب على العقد والمعضلات.

ولا أعتقد أن مفردات لغة المناديل التي قدمتها مجلة سركيس هي كل معجمها، وإنما نشرت ما تيسر لها الحصول عليه، والظاهر أنه كان معمولا بهذه اللغة زمن نشرها أو قبل ذلك ؛ لأن المجلة قالت إنه يكثر استعمال هذه اللغة صيفا.

المناديل الملونة:

والمرأة في سيم المناديل تيسر الحب أو تعقده بتحريك المنديل إلى أعلى وإلى أسفل، أو بطيه وبسطه ، أما في المناديل الملونة، فإن اللون يحمل الدلالة على الغرض المنشود ، ويشكو الحالة المفعمة بالشجو والأسى، ورعدة الفشل في النجاة من صقيع الحياة ، أو الاستبشار بدنيا سارة لا تهدهدها الأحزان ، وتتلاقى فيها الأرواح المتحابة.

ولم يسجل أحد في مصر شيئًا عن التهادي بالمناديل التي تحمل دلالات سرية ، أو على الأقل لم يقع في يدي شيء من هذا في كتاب أو صحيفة ، وإن كان هناك مقطع في أغنية فيه منديل يحمل لمحات من أسرار المناديل ، ولكن الكاتبة التركية أليف كروتييه ذكرت في كتابها «عالم الحريم خلف الحجاب» عدة مناديل، كل واحد منها يحمل لونا له دلالة، أرسلتها حريم إلى عشاق.

وقبل أن نأتي بالمناديل الملونة ، نترك السيدة أليف.. تشرح لنا وضع الحريم خلف الحجاب في تركيا ، تقول:

«أما المرأة غير المقيدة بخصي يرافقها أو البارعة في تضليل

هـذا الخـصى فإنـه لرتابـة اللبـاس قيمـة كبـيرة في عتقهـا مـن المسؤولية، هـذه الرتابـة تجعـل المرأة غـير متميـزة عـن سـواها ، ولا يمكن لرجل أن يفكـر بـالاقتراب منهـا ، أو التحدث إليهـا في الـشارع؛ لأن حجابها وجلبابها لهما من الحرمة ما لأبـواب الحرملك ذاتها من حرمة – والزوج لا يستطيع أن يميز زوجته من بين بقية الأشكال القاتمة الرتيبة ، ولهذا كان بوسع المرأة أن تستفيد من حالة الـلا تمايز هـذه وتتسلل إلى لقاء غرامي مع عـشيقها، وهـي في طريقهـا إلى الحـمام في أغلـب الأحيـان ، وقـد لاحظ جيراردي نيرڤال:

«أما بالنسبة لحرية الخروج والقيام بالزيارات ، فقد كانت بدون شك متاحة للمرأة الحرة المولد، وحق الزوج في هذه المسألة يقتصر على إرسال الخصيان ليرافقوها ، إلا أن هـذا الإجراء الاحترازي، كان ضئيل الجدوى ، إذا كان من السهل تماما على الزوجات، إما أن يشترين العبيد بالرشوة، أو أن يخـرجن متقنعـات إمـا مـن الحـمام ، وإمـا مـن أحـد بيـوت صاحباتهن، بينما يقبع مرافقوهن يراقبون عند الأبواب..».

وهـذا العـشق المضطرم تسبقه أو تلحق بـه رسائل غرامية عبارة عن مناديل ملونة ، تقول السيدة أليف:

«كـان للمناديـل الـصغيرة مكانـة خاصـة في قلـوب نـساء

الحرملك ، فالهدايا والفواكه كانت تلف بها ، والقصص تحكى عن مناديل مفعمة بالبهجة التركية، تقدم خلسة لغرباء وعشاق حالمين، أما لون المناديل فقد كان على الدوام ينقل رسالة صامتة:

فالأحمر: الحب المتقد.

والبرتقالي: الحزن والغم.

الأخضر : التصميم على الزواج.

القرنفلي : وثاق الحب.

الأرجواني : عذاب الحب.

الأسود : اليأس ، الفراق.

الأزرق : الأمل بالاقتران.

والمنديل الذي يمزق ويحرق يفيد: إني أموت غما وحزنا، إني أذبل وأتلاشى»[1].

ومعاني الألوان هنا ليست نتيجة دراسة علمية تتبدى فيها خصائص كل لون ، وإنما هي لغة رمزية مهمتها توصيل رسالة عشقية. والمعشوق مرسل المنديل قد يختار اللون الذي يوحى

(١) أليف كروتييه : «عالم الحريم» .. مصدر سابق.

المعنى ، أو بعبارة أخرى يختار لونا قابلا للمعنى الذي يريد تبليغه فإذا فهم المرسل إليه المعنى المقصود ، يكون المرسل منه نجح في اختياره.

وإذا لم يوفق في اختيار اللون الموحي للمعنى فلا ضير، فإن الحب الوثيق ليس بالضرورة أن نرمز له بمنديل قرنفلي، وفي الواقع لا صلة بين الحب المكين ولون القرنفل ، ثم إن التأثير في المتلقى ليس باللون، ولكن بالمعنى الذي يحمله، فاللون الأحمر الناري الصاخب المثير ليس هو المؤثر، وإنما معناه وهو «حبك نار».

ولكن هناك مناديل تتماشى ألوانها مع ما تحمله من دلالات ، مثل المنديل الأزرق في مجموعة مناديل السيدة أليف، فالأزرق لون رقيق حالم وادع يُقرن بالصفاء، يجذب المرء لتأمله، ويتطلع إلى الدفء، وينفر من الانكماش ، ولعل هذه الأوصاف التي استوحيتها منه ، تناسب دلالة المنديل الأزرق وهي «الأمل بالاقتران».

والمنديل الأسود يرمز للحزن والفناء، ويُظهر عمق التشاؤم والاستياء في نفس مرسلته ، ويبين أن انطفاء شعلة أملها أمر

محقق، ومن هنا فاليأس والفراق يناسبان دلالة المنديل الأسود.

واللون الأخضر اليانع النضر رمز الحيوية والبهجة ، والذي يجعل الحياة مستعذبة، ولا يسبب انفعالات وإثارات كاللون الأحمر ، قد يلائم المنديل الأخضر رمز الزواج أو الاحتشاد له.

وبعيدًا عن مناديل الست أليف .. نسمع في أغنية تغنيها شهرزاد عن منديل أهداه أحد عاشقين لآخر، وهو منديل ملغز كله أسرار:

وكان منديل وبديع ومتعطر
يبان أخضر ولونه مش أخضر
على حرفه رسم حرفين
في أحضان بعضهم لاتنين
يبان حرف مش أكتر

ومن ألغاز المنديل أنه أخضر ، ولكنه «مش أخضر» أي أن لونه يخالف معناه ، واللغز الثاني أن في طرفه حرفين ، وهما أول حرف من اسم العاشق ، وأول حرف من اسم العشيق، وأن هذين الحرفين توشجا وتشابكا حتى صارا حرفا واحدًا وهو ما يفيد تلاشي أحدهما في الآخر بالزواج ، أو بتداخل القلبين.

حيل العشاق

سيم الحب كله من حيل العشاق ، فما دام حبا سريا فلابد من تمويهه وتغطيته ، ليكون في صالحهم، لذلك لا يعيشون عيشة رتيبة ، وإنما يحذرون أن يخطئوا في الحساب ويقعوا في الخطأ، ومن هنا فهم يخشون ، ويتوترون ، ويترقبون، ويتطلعون إلى الآتي، ويميلون إلى المداراة ، والعزلة، والتحدث بلغات سرية غير مفهومة ويقاسون في سبيل تأمين أصحابهم مقاساة شديدة، ويظلون في صراع خفي مع الوشاة والرقباء والعذال لنصرة الحب، والفوز بلذاته ، وتأكيد أهمية الحب للمحب.

ويضن العاشق بذكر الصفات التي تنفرد بها صاحبته في كلامه وأغانيه، إلى جانب إخفاء مواعيد اللقاءات حتى لا يسبق إليها رقيب، وعدم البوح بأخبار طقوسها.

انتحال الأسماء:

ومن أهم ما يستره العاشقون عن غيرهم أسماء معشوقاتهم؛ لأن الناس تكون أكثر إصغاء لمن يذكر اسم محبوبته، ليفشوا

خبرها ، ويذيعوا على الملأ اسمها ، وفي هذا ما فيه من تمكين الناس منهما ، ومن يفعل ذلك كأنه يسبح في بحر الغرام من غير أن يعرف العوم فيغرق، وهناك من حذاق العشاق من يُكنّى عن اسم محبوبته كما يقول النابغة الجعدي:

أكنّـــى بغـــير اســـمها وقـــد
علـــم الله خفيّـــات كـــل مكتـــتم

وقد يكنّى العاشق عن اسم بصفة واضحة متفردة فيها ، فيكون هذا مدعاة لمعرفة الناس بها ، وأنها فلانة المقصودة ، أو يذكر اسمها ولا يكنى فيفضح أمرها، ومن هذا أن شاعرًا عاشقًا نسب بامرأة ، فأرسلت إليه تلومه، وتشكو مما فعل ويعبر هو عما قالته بقوله:

وقـــد أرســـلت في الســـر أن قـــد فـــضحتني
وقد بحت باسـمي في النّسيب ومـا تكنّـى(١)

ولكن هناك عاشقا يحب اسم حبيبته ، ويرغب في الترنم به، وفي الوقت نفسه لا يريد إحراجها ، منهم ذو الرّمة الذي كان يجلس في صحراء خالية ليردد لسانه اسم معشوقته، فيطرب

(١) نقلا عن كتاب «الكامل في اللغة والأدب» للمبرد.

نفسه، ويقيها كلام الناس[1] ويقول:

أحبّ المكانّ القفزّ من أجل أنّنى
أتغنّى باسمها غير مُعْجَم

ومن حيل العاشقين في مداراة اسم المحبوبة، كتابة اسمها بداية من الحرف الأخير فما بعده إلى أول حروف اسمها، ومما حكى في ذلك أن «الحسن بن وهب» تعشق جارية يقال لها: «ناعم»، فنكس اسمها، ونقش على خاتمه: مُعان، وذكر ذلك في أبيات يقول فيها:

نَقَشتُ مُعانًا على خاتَمى
لكيما أعانّ على ظالمي
كذا اسم من هام قلبي به
وأصبح في حالة الهائمِ
نكستُ الهجاء فأعلنْتُهُ
بطرفي ليخفى على الحازمِ[2]

(١) ردد ذو الرمة في شعره اسمى ليلى ومي كثيرا.
(٢) الموشّي.

وكما يحتال الرجال على إخفاء أسماء المعشوقات ، فإن عُليَّة بنت المهدي أخت هارون الرشيد كانت تراسل خادمين هما «طل» و«رشا» ، وقيل: إنها كانت تحبهما ، وقالت في «طل»: .

قد كان ما كُلِّفْتُهُ زمنا
يا طل من وجد بهم يكفى
حتى أتيتك زائرًا عجلا
أمشي على حتفي إلى حتفي

فلما عرف الرشيد بهذا الشعر، حلف «ألا تكلم طلا الخادم، ولا تسمى باسمه فضمنت له ذلك» ، ولكنها كاتبت الخادمين، وكانت تكنّى عن رشأ بزينب، وعن طل بظل، فمن شعرها في «طل» وكنايتها له بظل على أنها جارية:

يا ربِّ إنِّي قد حرضتُ بهجرها
فإليْكَ أشْكُو ذاك يا ربَّاه
مولاة سوء تستهين بعبدها
نعم الغلام وبئست المولاه
ظلّ ولكنّي حُرمتُ نَعيمهُ
وهواه إن لم يُغثنى الله

وقالت عن رشأ الذي كنّت عنه بزينب:

وَجـدَ الفُـؤادُ بزينبـا ... وَجْـدا شَـديدا مُتعبـا
أصبحت من وجد بها ... أدعـى شـقيّا مُنْـصَبا
ولقد كنْيتُ عن اسْمها ... عمـدًا لكـي لا تغـضبا
وجعلـتُ زينـب سُـتْرةً ... وأتيـت أمـرًا مُعجَبـا
قالـت وقـد عـزّ الوصـا ... لُ ولمْ أجـدْ لي مـذْهبا
والله لا نلـتَ المـوَ ... دّة أو تَنـالَ الكَوكَبـا[1]

وكانت عُليّة شاعرة ومغنية وموسيقية، ولم يذم أحد أخلاقها أو ينتقص من عقلها، أو يطعن في صيانتها لنفسها، وكانت مشغولة بالصلاة، وكان الرشيد يرغب في أن يجلسها إلى جانبه على سريره، ولكنها كانت ترفض. وكانت تقول: «اللهم لا تغفر لي حرامًا أتيته، ولا عزما على حرام إن كنت عزمته، وما استغرقني لهو قط إلا ذكرت سببي من رسول الله ﷺ فقصرت عنه، وإن الله ليعلم إني ما كذبت قط، ولا وعدت وعدًا فأخلفته»[2].

(١) عن «كتاب الأوراق – قسم أشعار أولاد الخلفاء» مصدر سابق.

(٢) المصدر السابق.

وكان ابن المعتز يكنّى في شعره عن صاحبته بذكر اسم أخرى، فإذا عاتبته صاحبته بأنه ذكر اسم غيرها ، سارع إلى استنقاذها من الغيرة ، وطمأنها بأنه سمّى غيرها. ولكنه كان يعنيها، وبذلك تسكن مشاعرها المهتاجة . يقول:

قالتْ: تبَدَّلت أخرى ، قلت: أفديك
من كلّ سوءٍ ومكرُوه ، وأحميك
قالت: وسميتها في الشعر، قلت لها:
سميت غَيرَكِ لكن كنت أعنيك

حيل النساء:

وقد بيّنت قصص الحب أن النسوة صاحبات حيل مثل الرجال، وأثبتت أنهن عوامات في بحر الهوى الهادر، وقادرات على إعمال أذهانهن في استكشاف الفجوات وردمها، بل إن الواحدة منهن كفيلة برفع صاحبها إذا تعثر، وتصحيح اتجاهه إذا حاد عن الطريق، وفي أصغر وقت، وقد يكون في لمح البصر، تستطيع تبديل الموقف الخطير بموقف آمن، وذلك بذكاء نادر، وقوة أعصاب ؛ لأنه إذا هالها أمر هائل فلا تظهر أنه هالها.

ونضرب مثلا بليلى الأخيلية ، وكانت تحب توبة بن الحميِّر ويحبها ، وكان إذا أتى ليلى الأخيلية خرجت إليه في برقع، فلما شهر أمره ، تظلم أهلها إلى السلطان، فأباحهم دمه إن أتاهم؛ فمكثوا له في الموضع الذي كان يلقاها فيه، فلما علمت به خرجت سافرة حتى جلست في طريقه، فلما رآها سافرة فطن لما أرادت وعلم أنه رُصِد، وأنها سفرت لذلك تحذره ، فركض فرسه فنجا، وفي ذلك يقول توبة:

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت[1]
فقد رابني منها الغداة سفورها
على دماء البدن إذا كان بعلها
يرى لي ذنبا غير أني أزورها

وتقول ليلى : «وكنت أعرف الوجه الذي يجيئني منه ، فرصدوه بموضع ، ورصدته بآخر ، فلما أقبل لم أقدر على كلامه.. فسفرت، وألقيت البرقع عن رأسي، فلما رأى ذلك أنكره ، فركب راحلته ، ومضى ففاتهم»[2].

(١) الأغاني حـ١١ ط الشعب ١٩٦٩.

(٢) الأغاني.

وهكذا أنقذت ليلى صاحبها من ورطته ، ومن هَدْر دمه ولابد أن سفورها فحسب لم ينقذ الموقف، فلابد أنها أومأت إليه، ونظرت له، وأدرك من كل هذا أنه إن أوغل سيقتل، فاستدار وانسحب ، فبذكاء ليلى ، واستغلال إمكاناتها القليلة، ووقتها اليسير، منعت وقوع المأساة. وسفور ليلى هنا سيم طارئ، أو سيم خاص، أملته الظروف ، وأدى عمله.

وحسب ما جاء في «الأغاني» لم يكن بين توبة وليلى الحب المرنّق ، والإسفاف ، والنزول إلى الحضيض، وقد قُتل توبة، ورثته ليلى كثيرًا، وقيل: إنها كانت تزور توبة في لحده، ثم ركبت الجمل لتعود، ولكنها سقطت من فوقه ميتة، ودفنت إلى جواره والله أعلم .

وتتفنن المرأة في تحديد شخصيتها لمن تهواه بعلامات تبنيها له حتى لا يلتبس عليه أمرها ، ويتعامل مع غيرها، وهو يظن أنها هي، ومن الحكايات التي رويت في هذا الشأن ما جاء في كتاب «طوق الحمامة...» : « ومن بديع الوصال ما حدثني به بعض إخواني أنه كان في بعض المنازل المصاقبة له هوى، وكان في المنزلين موضع مطلع من أحدهما على الآخر، فكانت تقف له في ذلك الموضع، وكان فيه بعض البعد، فتسلم عليه ويدها ملفوفة في قميصها، فخاطبها مستخبرًا لها عن ذلك، فأجابته:

إنه ربما أحس من أمر ناشئ ، فوقف لك غيري، فسلم عليك، فرددت عليه، فصح الظن، فهذه علامة بيني وبينك، فإذا رأيت يدًا مكشوفة تشير نحوك بالسلام، فليست يدي فلا تجاوب»[1].

وفي هذه القصة تجتذب المرأة صاحبها، فلا يسلم على أخرى وتحقق بذلك أنانية الحب، وتسترعى انتباهه، وتنبه نظره إلى ضرورة الاستيثاق من هوية المرأة المنظورة، وفي الوقت نفسه تصرف نظر النساء عنه؛ لأنه لو أخطأ وتعامل مع أخرى ، ربما ظنت أنه يميل إليها، أو أنه يصبو إلى النسوة الحسان، هذا غير ما فيها من الحذر والتحذير. وهذا سيم سري خاص بين اثنين معينين ولا يعرفه عاشقان آخران ، وكل امرأة تمارس الوصال السري حسب ذكائها، واتساع أفقها ، وظروفها ، وأحوال صاحبها.

والملاحظ في كثير من حكايات العشق، أن المرأة هي دليل الرجل ومرشدته، وهي التي تأخذ بيده وتدبر له، وتُحكم الحيل في هذا ، وربما هذا يناسبها ؛ لأن الرجل يستطيع أن يذهب إلى صاحبته ويتلاقى معها في أي وقت وأي مكان، أما هي فلا

(١) كتاب «طوق الحمامة» مصدر سابق.

تناسبها إلا أوقات معينة وأماكن محددة، وفقا للظروف التي تحيط بها ، والمرأة لا تفكر في إتمام اللقاء فحسب، وإنما يهمها تتميمه وتأمينه، وعندما تسنح الفرصة تغتنمها، ولأنها قادرة على أن ترمز وتلغز، فإنها تخاطب صاحبها بالرموز والألغاز المعماة.

وحيل بعض النساء في مجالنا هذا لا تنفد، وتبصرها بالأحوال قد يكون شاملًا، وتعبيرها ، في رحلتها الغرامية السرية يكون مستغلقًا، وأغراضها مستخفية، ولا شك أنها ذكية، وذكاؤها يتألق عندما تنظر في أمورها الخاصة، ولا يستطيع أحد أن يغالب المرأة إلا من عرف سرها، ولأجل هذا فهي حريصة حذرة، وإذا أرسلت رسالة أو هدية إلى صاحبها، فإنها تكون عبارة عن مجموعة ألغاز، لا يتكشف فيها سر مخبوء، ولا تستطيع العين أن تنفذ فيها إلى ما وراء الغلاف، وإنما تظل عباراتها أو قطعها مغلقة مغطاة، وهناك رجال من هذه العينة، أو أبسط منهن قليلًا، لا تدرك مراميهم. ونحن يصعب علينا معرفة ما بين صاحبين إلا إذا باحا به ، أو أخبرنا به رسول كان يسعى بينهما ، أو إذا قضت الأقدار والمصادفات أن يقعا في خطأ، فتظهر بواطن الأمور، وهاتان الرسالتان بين صاحبين تظهران عمق حيلهما وفكرهما:

دعا رجل «محبوبته إلى النزهة ، فأرسل إليها بمروحة ، وباقة[1] نرجس وسُكّر نبات وشرّابة وعود ، فأرسلت إليه بخيط أحمر وصبّارة وثلاث كمونات سُود ، وغاسول وزُرّ. وفي ذلك من لطيف الإشارة ، ما يدق عن الأفهام، فإنه أراد بالمروحة: نروح، وبالنرجس: إلى الزهر، وبالسكر النبات: نبيت ليلة، وبالشرابة: نشرب، وبالعود: الغناء، وأرادت بالخيط الأحمر : أنها حائض، وبالصبارة: أن تصبر ، وبالثلاث كمونات: ثلاث ليالٍ، وبالغاسول : الاغتسال، وبالزر : الزيارة بعد ذلك».

فكل من الصاحبين كان يفكر ، ويتعمد أن تكون أفكاره غريبة وملتوية، بقصد التتويه والتضليل ، ومهما يجتهد المطالع لهاتين الرسالتين في فهمها فإنه لا يهتدي إلى شيء في مثل هذه الرسائل التي غشيها الإبهام.

(١) الصحيح طاقة.

هدايا العشاق

ويتبادل العشاق الهدايا الرامزة إلى الشوق الفياضة الدالة على الوفاء ، وبعضها لا يخلو من سيم يعني النداء واللقاء ، ومهما يكن من أمر فإن تبادل الهدايا في أية صورة من الصور يبين التواصل، ويظهر أن القلوب مازالت تخفق وتحب.

ومن هذه الهدايا الرامزة كرة من العنبر أهدتها جارية أو قينة مع خادم إلى عبد العزيز بن صلاح الدين ، وكان بينهما عشق حال السلطان الأيوبي دون تواصله واستمراره، فلما فتحها العاشق ألفى في كرة العنبر «زُر ذهب» ولم يفهم مراد محبوبته منه، فلما وافاه القاضي الفاضل وأطلعه على الأمر، كشف له عن الغرض وهو:

أهدت لك العنبر في وسطه　　زرّ من التبر دقيق اللحام
فالزر في العنبر تفسيره　　زُر هكذا مستترا في الظلام

وقيل: إن القاضي الفاضل استنبط كلمة «زُر» بضم الزاي من الزُر بتشديد الزاي وكسرها ، واهتدى إلى كلمة ظلام من

العنبر لسواد لونه، وهذا المثل يرينا أن السيم غير المتفق عليه يحتاج إلى ذكاء وحس دقيق ، وقوة ملاحظة ، وقدرة على الاستنباط، فإذا عدم المتلقى هذه الصفات، تعذر عليها فهم اللحن.

وأهدت عاشقة إلى بشار بن برد مسواكًا لتلهب مشاعره، وتشعل أحاسيه ، فقال:

تسوكت لي بمسواك لتعلمي ... ما طعم فيها وما همت بإصلاح

لما أتاني على المسواك ريقتها ... مثلوجة، كزلال الماء بالراح

قبلت ما مس فاها ثم قلت له: ... يا ليتني كنت ذا المسواك يا صاح[1]

وإهداء المسواك له إيحاءات كثيرة ، فهو يعني ضمن ما يعني عند متلقيه الوصل والضم والقبل ، وهكذا الشعر يمثل الغزل الماجن الفاحش والكاذب أيضا عند بشار، والمسواك هنا رمز أو سيم يعني التذكير بما كان أو وعد بما سيكون عليه الحال في الأيام القادمة.

والمناديل ، كانت ومازالت من هدايا العاشقين ، وإنها بعد

(١) الموشي- مصدر سابق.

طى المنديل تصير طياته كصفحات كتاب يمكن للعاشق أن يكتب عليها ما شاء ، لذلك صارت المناديل رسائل وهدايا في آن واحد ، وقد سطر المحبون بين طياتها مشاعرهم واجتهد كل منهم في توصيل أحاسيسه إلى الآخر، وما يدور في خاطره، وما ينتابه من شوق أثناء البعد، وقد تحدث «الوشاء» في هذا الموضوع ، فقال عن المحبين:

«ولهم حسن التأني فيما يريدونه، ولطيف الحيل فيما يحاولونه، وخفى التلطف لما يطلبونه .. ولهم فيما استحسنوا من الهدايا بينهم والبر والملاطفة والمكاتبة والتحفة من غيرهم من يستصغر.

«ومن ذلك كتبهم الملاح، وألفاظهم الصحاح التي يعطفون بها القلوب ، ويسترون بها العيوب، ويستقيلون بها العثرات، ويستدركون بها الهفوات التي استخلصوها من بديع الحرير الصيني، ومليح الملح النيسابوري ، وصفيق الدبيقي الحقي، وتغلغلوا إلى الكتابة في ذلك بالذهب والمسك والزعفران والمسك (نوع من الطيب) واتخذوا لها طرائف المناديل الرقاق وجياد الزنانير الدقاق، وطيبوها بالمسك والذرائر، وعنونوها بمستظرفات الأمثال والنوادر، وطبعوها بنتف الألفاظ

المهلكة، وقد ضمنت من مليح المكاتبة، وطرائف المعتبة، وجميل المطالبة، وأشكال المداعبة، ما يقربون به البعيد، ويهونون به الشديد...».

وهناك أمثلة وافرة لمحبين أهدوا مناديل دونوا فيها أشعارًا تتضمن العتاب، وتشكو تباريح الغرام، وضعف الجسد من طول النوى، وحكما عالية مستنبطة من تجارب الحب، مع التذكير بما كان، وتمنى الوصال بعد النفار، وغير ذلك من الأحاسيس العاطفية، والمشاعر الإنسانية المؤثرة.

ومن هذا أن جارية كتبت لعاشقها في منديل بالذهب تخبره بأن جسدها ضعف ووهى إلى درجة أن أنفاس زائريها وعوادها تسقطها عن الفراش.

هأنذا يسقطني للسبلى ... عن فرشي أنفاس عوادي
لو يجد السلك على دقة ... خلقا لأضحى بعض حسادي

ولم يكن عاشقها بأحسن حال منها فقد كتب في منديل إليها:

لا تسألي كيف حالي بعد فرقتكم ... ها فانظري وأجيلي طرف ممتحن
ترى بلى لم يدع مني سوى شبح ... لو لم أقل ها أنا للناس لم ابن

وكتب آخر في منديل أن العتاب لا يؤدي إلى الحب، ما لم تكن هناك محبة أصيلة وباقية في القلب.

أن بعض العتاب يدعو إلى العتـ ـب ويؤدي بـه الحبيب الحبيبا

وإذا ما القلوب لم تضمر الحـ ـبَّ فلن يعطف العتاب القلوبا

وكتبت جارية حمدونة بنت المهدي على منديلها تشكو صد محبها بلا ذنب أتته:

إليك أشكو رب ما حل بي من صد هذا العاتب المذنب

صد بلا جرم ولو قال لي لا تشرب البارد لم أشرب

وهذه المناديل التي عرضنا لها لم تتضمن معنى خفيا، أو سيما فيه تعمية.

الختام

كيف نشأ السيم؟ وماذا بقى منه؟

ما دام في الحياة فتى وفتاة ، رجل وامرأة ، فهناك حب، ولابد أن يكون بينهما لغة سرية لأسباب كثيرة منها.

- أن المدن والقرى والأحياء ، كانت صغيرة الحجم، ضيقة الدروب، ولا يستطيع فتى وفتاة التجوال فيها، أو الالتقاء في مركزها أو في ناحية من نواحيها.
- وأن تعداد السكان قليل في هذه المدن والقرى ، وكل واحد يعرف الآخرين ، فكيف يتلاقى متحابون؟
- والمرأة في تلك الأزمنة البعيدة محدودة الحركة، معدودة الخطا، لا تبرح خيمتها أو بيتها إلا بمقتضى.

وفي هذه الظروف القاسية يكون الاتصال بين عاشقين بواسطة رسل، وكان الرسول بين المتحابين إما جارية ، أو دلالة، أو امرأة عجوز، أو شخص موثوق به، وعلى صلة ما بالطرفين، وهذه الرسائل تنوعت وتعقدت حتى صارت ألغازًا

مثل رسالة العنبر الذي في وسطه زُر ، حتى لا يفهم حامل الرسائل دلالات ما تحمله، وتنوعت الرسائل حتى صارت تشمل الزهور والثمرات وبعض أجزاء النباتات، ولم أطالع كل الكتب لأحدثك عن مختلف لغات الحب السرية ، ولكن ثق أن ما وقع ، ولم تسجله الكتب أضعاف أضعاف ما سجلته الدفاتر، وما زلنا إلى الآن نستخدم السيم، فيقول: «أ» لزيد اذهب إلى ب ، وقل له: هات كذا وكذا بأمارة كيت وكيت، أي يعطيه أمارة ، والأمارة هنا هي السيم.

في ذلك الوضع الاجتماعي المثقل بالتقاليد والعادات وعدم الاختلاط بين الجنسين ، ظهر السيم، وأعتقد أنه اختراع نسائي تجاوب معه الرجل ، لأن الإدانة تقع عليها أكثر من الرجل، لذلك هي تبحث عن كل وسائل الوقاية والحماية، وهي التي تختار مكان اللقاء وزمانه وفق ما يناسبها، وهي أدرى بأحوالها، أما الرجل فإنه أوفر حرية ، وأقوى إرادة، ويملك نفسه ووقته، ويستطيع أن يذهب إلى أي مكان في الوقت المحدد ، لذلك لا يشترط في الغالب ولا يختار.

وغالبًا ما كان مكان اللقاء ظاهر القرية أو المدينة، أي خارجها في الخلاء أو في أي مكان مناسب، أما الزمان ، فالغالب عليه ، يكون ليلا ليسترهما من عين الرقيب،

ولا نستطيع أن ننكر اللقاءات ؛ لأن كثيرًا من الرسائل الذاهبة والآتية تتعلق باللقاءات، وإذا لم تكن هناك لقاءات فمن أين جاء كل هذا الشعر الذي يحكي تفاصيل كثيرة مما جرى وكان، وقد اعترفت ليلى الأخيلية بلقاءاتها مع توبة بن الحميِّر ، وتنفي التهتك والإسفاف، ولا يعني كلامي أن اللقاءات كانت سهلة ميسورة، وإنما أذهب إلى أنها كانت تتم إذا واتت الظروف وساعدت الأحوال.

كذلك فإن سيم المناديل من صنع المرأة؛ لأن المناديل والمناديل الملونة أقرب إلى طبيعة المرأة ، والنساء لا الرجال هن اللاتي ينقشن على أطرافها الحروف والقلوب ، كذلك لم يعرف عن رجل أنه وضع منديلا على كتفه أو تحت أذنه أو شد به وسطه ، فكل هذا من عمل النساء.

كل ما ذكرناه كان قائما حتى القرن التاسع عشر وبعده بقليل.

ثم أشرق نور العلم على المجتمعات التقليدية القديمة، وأضاءها ، وعاجلها بالمبتكرات التي غيرت كثيرا من ثقافاتها ومعالمها ، كذلك عمل الزمن على توسيع القرى والمدن، فصارت بعض القرى مدنا ، وصارت بعض المدن عواصم

إقليمية، وتزايد عدد السكان، واكتظت السبل بالسابلة، ولم يعد أهالي المدن الكبرى يعرف بعضهم بعضا، وإذا انتقل الشخص من حي إلى حي آخر داخل المدينة الواحدة، فقلما يعرفه أحد، وصاحَبَ اتساع المدن، وترامي حدودها ظهور سينمات، وكازينات وحدائق عامة، ومواصلات.

كذلك فإنه في الزمن الجديد تحررت المرأة، وسفرت، وتوظفت أو التحقت بعمل، وصار خروجها كل يوم من بيتها مبررًا، ولم تعد محدودة الحركة، معدودة الخطا، ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب، وإنما فاجأنا العلم باختراع الموبايل والإنترنت.

في هذا المجتمع الجديد صار الإنسان ينتقل من مكان لآخر، وفي الزمن الملائم ليلتقى بمن يريد، ويقابله في كازينو أو حديقة أو سينما، ويقول له، ويستمع إليه، ولم تعد مواعيد الاجتماعات تحتاج إلى فك رموز الرسائل مثل رسالة العنبر التي في وسطها زُر، وقد قرب الموبايل المسافات، واختصر الزمن إلى أقل وقت، وهو تليفون خاص سري، كذلك يمكن إرسال رسالة سريعة بواسطة الإنترنت، ويأتي الرد في الحال.

لذلك أخذت اللغات السرية الغرامية تتوارى ، ورسل الغرام يختفون، والزهر أمسك عن الإفضاء بأسراره، ولم تعد أفكار المحبين شاردة ، وقلوبهم دقاقة خائفة، وذهبت المناديل ، ومضى زمنها ، بل إنها تغيرت ، فقد كانت قطعا من القماش، فصارت قطعا من الورق، وبعد أن كانت تمسك في اليد، أصبحت توضع في حقائب.

وعادت الزهرة إلى حالتها الطبيعية ، وفقدت ما كسبته.

فهي زهرة طبيعية جميلة الشكل واللون، فواحة بالشذى، نفاحة الطيب ، وعندما استخدمها المحبون فقدت كثيرًا من أوصافها ، وعبرت عن مشاعرهم، وصار لها مغزى ومعنى غير ما عرف عنها ، فبعد أن كان المرء يشمها ، صار العاشق يضمها لأنها قادمة من عند حبيب، والزهور في الطبيعة صامتة ، فصارت مع العشق معبّرة ناطقة ، وهي ليست قيمة في ذاتها ، ولكن في الحب تكون قيمتها بما تحمله من سعادات ومسرات ، ووردة الطبيعة سندها الطبيعة ، ووردة الحب سندها العاطفة ، وزهرة الحديقة غايتها الإمتاع ، أما وردة الغرام فمهمتها

المؤانسة والمحادثة، وزهرة الروضة تذبل ويدركها الموات، وتدوسها الأقدام، وزهرة العشق حمالة المودات محظوظة محفوظة حتى وإن تيبس ورقها، ووردة الرياض لون وشكل ورائحة، ووردة الحب تبهج وتزعج حسب ما تتضمنه من أسرار وأفكار، وزهرة الطبيعة معرض من معارض الجمال، أما عند العاشق فإنها دفتر من دفاتر الأحوال النفسية.

كل هذه المكاسب التي حققتها وردة الغرام، ضاعت في زمن الموبايل، وعاد الزهر يعبق في حدائقه وينشر الروائح الذكية.

ولكن إشارات العيون، واختلاج الجفون، وتحريك الحواجب، وتمتمة الشفاه وانفراجها ومطّها، وزمّها وقلْبها، وابتسامها، وهز الأكتاف، وكل ما يحركه العاشق والمعشوق من أعضاء جسمه، ويؤدي معنى سريا، أقول كل هذا لم يؤثر فيه الموبايل، ولن يؤثر فيه شيء؛ لأن تعبير أعضاء الوجه واليدين ليس هناك ما هو أسرع منه، ولا أصدق، وستزرى هذه الأعضاء الحية بالإنترنت وما سيخترع ويبتكر، فمازال الحب يبدأ بالعين والشفاه، أي بنظرة وابتسامة وكلمة، ويعتمد

على التراثي المباشر والغزل الرقيق المستطاب، وتحسس أطراف الحديث المستعذب، ونجوى العيون ، واستطلاع المحب لمشاعر الآخر التي تبدو وتتوارى وتشتد وتتراخى أثناء حفاوة العين بالعين ، وغمز الجفن للجفن ، وارتياح النفس للنفس.

أحمد حسين الطماوي

obeikan.com